رسول الإسلام

محمد صلى الله عليه وسلم

خاتم الأنبياء والمرسلين

إسلام محمود دربالة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

رسول الإسلام

محمد ﷺ

خاتم الأنبياء والمرسلين

جمع وترتيب

إسلام محمود دربالة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مُقدِّمة

أتدري عمن تقرأ . . .

إنه القمة العلياء، إنه النور الساطع إنه الرحمة المهداة، إنه نبي الرحمة، إنه البشير النذير، إنه سيد ولد آدم أجمعين، إنه الهادي للبشرية إلى يوم الدين.

ذاكم رسول الله عنوان الهداية والسماح[١]

★ ★ ★

ملأت الأرض يا محمد نورًا وغمرت الناس حِكمةً والدُّهورا

أنت أنشأت للنفوس حياةً غَيَّرت كل كائنٍ تغييرًا

كيف تَجزي جَميل صُنعك دُنيا كُنت بَعثًا لها، وكنت نُشورا؟[٢]

إن ما يحزن القلب ويشجي النفس ما آل إليه حال أمتنا:

أبكي على الإسلام، يذهب عِزه ويبيتُ مطوي الجِناح مَضيما

نهضت شعوب الأرضِ ترفعُ مَجدها وأرى شعوب المسلمين جُثوما[٣]

ولكن بالرغم الخطوب، والحرب الضروس على أمتي فلابد من أن تعود عزتنا، لأنه وعد الله.

---

(١) من شعر د. عبد الرحمن العشماوي - ديوان يا أمتي.
(٢) من شعر أحمد محرم - ديوان مجد الإسلام (ص٤٥).
(٣) من قصيدة لأحمد محرم - مقدمة ديوان مجد الإسلام (ص١٦).

يـا أمـتـي لا تـيـأسـي ... مـا كـاسـبٌ إلا وخـاسـرْ
أومـا عـلـمـت بـأن دا ... ر الخلد حُفت بالمخاطر
الله أكبر في ذري الدنيا ... تـحـطـم كـل فـاجـر
لـم يـبـق إلا أن نـتـمَّ ... بـنـاءنـا فـالـجـذر غـائـر
لـم يـبـق إلا أن نـجـمـع ... شـمـلـنـا فـالـركـب سـائـر

أمتي عودةٌ إلى الدين فلا فلاح إلا به:

هل الدين إلا معقلٌ نحتمي به ... إذا دَلف العادي إلينا فأسرعا؟
هل الدين إلا الروح تُحيي نُفوسَنا ... حياةً تُرينا ما حِل العيش مَّمرعا؟
هو الدين إن يَذهب فلا عزَّ بعده ... وإن جد ساعينا على إثر من سَعى[1]

★ ★ ★

هذا كتاب الله يا دنيا اشربي ... من نبعه واستبشري بسداد
هذا كتاب الله ينشر بيننا ... سر اليقين على لسان الضاد
هذا كتاب الله تحت ظلاله ... سارت مواكبنا إلى الأمجاد
وحي السماء يبث كل فضيلة ... ويهز كل مكابرٍ متمادي
له هذا الوحي كم أعطى لنا ... عزًا ومد لنا يد الإنجادِ
لله هذا الوحي في آياته ... نورٌ يُضيء مسالك الإرشاد
هذا كتاب الله في تحكيمه ... عُزُ، وفيه صلاح كل فسادِ
هو نهجنا، فإذا هَجرنا دربه ... فحياتنا مرهونةٌ بكساد[2]

(١) من قصيدة بعنوان ثوبوا إلى الهدي للأستاذ/ أحمد محرم - مقدمة ديوان مجد الإسلام (ص١١).
(٢) من ديوان: إلى أمتي - شعر د. عبد الرحمن العشماوي (ص٢١٥-٢١٩).

فبين يديك ما تيسر من سيرة خير البشر وهديه وشمائله وأخلاقه، ومعجزاته والبشارة برسالته والتعريف بدينه الخاتم، وشريعته الناسخة لما سبقها من الشرائع، وبيان فضله على العالم.

وقد جمعت من بطون الكتب والمؤلفات هديه ﷺ وشمائله ووصفه وخصائصه، ومعجزاته، إلى غير ذلك من جوانب عظمته ﷺ.

مع ذكر نقولاتٍ من الكتب السابقة والتي اشتملت على البشارات ببعثه وبزوغ دينه وعلو شأنه.

إضافة إلى التعريف بهذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله ﷻ للبشرية ليكون الدين الخاتم الذي لا نجاة إلا باتباعه والدخول فيه فببعثته ﷺ صار الإسلام هو الدين المهيمن على الدين كله، وقد بينت طرفًا من عظمة الإسلام وسماحته، وخصائصه وفضائله.

فهلموا معاشر الأنصار، يا حماة الإسلام ويا دعاة العقيدة الصحيحة بينوا دينكم واصدعوا بآيات كتاب ربكم، وأسمعوا الدنيا نداء الحق، حتى تبرأ الذمة وتقوم الحجة ويصير الدين كله لله.

رزقنا الله حب نبيه وحسن اتباعه ظاهرًا وباطنًا وحشرنا في زمرته مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

فيا أيها المحب، دونك هدي الحبيب فتمسك به، ويا أيها الراغب في الخير أقبل على هذا الخير، ويا من لم يصلك نور الهداية أقبل فوالله إنه الفلاح والنجاح، وليس لك بدون دين المصطفى ﷺ نجاة.

وكتب

إسلام محمود دربالة

islamderbalah@hotmail.com

تمهيد

لم يكتب لأحدٍ من البشر من الأثر والخلود والعظمة ما كتب لصاحب النسب الشريف ﷺ.

ولقد دونت في سيرته الكتب، ودبجت في مديحه القصائد، وعمرت بذكره المجالس، وبقيت عظمته قمة سامقة لاتطالها الظنون.

تقلبت به صروف الحياة من قوة وضعف، وغنى وفقر، وكثرة وقلة، ونصر وهزيمة، وظعن وإقامة، وجوع وشبع، وحزن وسرور، فكان قدوة في ذلك كله، وحقق عبودية الموقف لربه كما ينبغي له.

ظل في مكة ثلاث عشرة سنة، وما آمن معه إلا قليل، فما تذمّر ولا ضجر، وجاءه أصحابه يشتكون إليه ويسألونه الدعاء والاستنصار فحلف على نصر الدين وتمام الأمر، وأنكر عليهم أنهم يستعجلون، فكان الأمر كما وعد، علماً من أعلام نبوته، ونصراً لأمر الله، لا للأشخاص.

وكان من نصره أن تأتيه وفود العرب من كل ناحية مبايعة على الإسلام والطاعة فما تغير ولا تكبّر، ولا انتصر لنفسه من قوم حاربوه وآذوه وعاندوا دينه.

كما كان يقول أبو سفيان بن الحارث:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمدِ
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى وأهتدي
هداني هادٍ غير نفسي ودلني ... على الله من طردته كل مطرد
وما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

فاستل العداوات، ومحا السخائم، وألّف القلوب، وأعاد اللُّحمة، وعرف عدوُّه قبل صديقه أنها النبوة، وأنه لم يكن صاحب طموح شخصي ولا باني مجد ذاتي، وإن كان الطموح والمجد لبعض جنوده.

تعجب من عفويته وقلة تكلفه في سائر أمره، واحتفاظ شخصيته بهدوئها وطبيعتها وتوازنها مهما تقلبت عليها الأحوال، واختلفت عليها الطرائق.

قل إنسان إلا وله طبعه الخاص الذي يبين في بعض الحال ويستتر في بعض، ويترتب عليه استرواح لقوم دون آخرين، ويحكم العديد من مواقفه وتصرفاته حاشاه ﷺ.

فهو يُقْبِل بوجهه على كل جليس، ويخاطب كل قوم بلغتهم، ويحدثهم بما يعرفون، ويعاملهم بغاية اللطف والرحمة والإشفاق، إلا أن يكونوا محاربين حملوا السلاح في وجه الحق، وأجلبوا لإطفاء نوره وحجب ضيائه.

كل طعام تيسر من الحلال فهو طعامه، وكل فراش أتيح فهو وطاؤه، وكل فرد أقبل فهو جليسه.

ما تكلف مفقوداً، ولا رد موجوداً، ولا عاب طعاماً، ولا تجنب شيئاً قط لطيبه، لا طعاماً ولا شراباً ولا فراشاً ولا كساءً، بل كان يحب الطيب، ولكن لا يتكلفه.

سيرته صفحة مكشوفة يعرفها محبوه وشانئوه، ولقد نقل لنا الرواة دقيق وصف بدنه، وقسمات وجهه، وصفة شعره، وكم شيبة في رأسه ولحيته، وطريقة حديثه، وحركة يده، كما نقلوا تفصيل شأنه في مأكله، ومشربه، ومركبه، وسفره، وإقامته، وعبادته، ورضاه، وغضبه، حتى دخلوا في ذكر حاله مع أزواجه أمهات المؤمنين في المعاشرة، والغسل، والقسم، والنفقة، والمداعبة، والمغاضبة، والجد، والمزاح، وفصلوا في خصوصيات الحياة وضروراتها.

ولعمر الله إن القارئ لسيرته اليوم ليعرف من تفصيل أمره ما لا يعرفه الناس عن متبوعيهم من الأحياء، ومالا يعرفه الصديق عن صديقه، ولا الزوج عن زوجه، ولا كان أهل الكتاب يعرفونه شيئاً يقاربه أو يدانيه عن أنبيائهم وهم أحياء؛ وذلك لتكون سيرته موضع القدوة والأسوة في كل الأحوال، ولكل الناس.

فالرئيس والمدير والعالم والتاجر والزوج والأب والمعلم والغني والفقير...

كلهم يجدون في سيرته الهداية التامة على تنوع أحوالهم وتفاوت طرائقهم.

والفرد الواحد لا يخرج عن محل القدوة به ﷺ مهما تقلبت به الحال، ومهما ركب من الأطوار، فهو القدوة والأسوة في ذلك كله.

وإنك لتقرأ سيرة علم من الأعلام فتندهش من جوانب العظمة في شخصيته فإذا تأملت صلاحيتها للأسوة علمت أنها تصلح لهذا العلم في صفته وطبعه وتكوينه، ولكنها قد لا تصلح لغيره.

ولقد يرى الإنسان في أحوال السالفين من الجلد على العبادة، أو على العلم، أو على الزهد ما يشعر أنه أبعد ما يكون عن تحقيقه حتى يقول لنفسه:

لا تعرضن لذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعدِ

فإذا قرأ سيرة رسول الله ﷺ أحس بقرب التناول وسهولة المأخذ، وواقعية الاتباع.

حتى لقد وقع من بعض أصحابه ما وقع فقال لهم: «**أنا أخشاكم لله، وأتقاكم له**» متفق عليه.

وقال: «**اكلفوا من العمل ما تطيقون**» رواه البخاري ومسلم.

وقال: «**إن هذا الدين يسر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا**

وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا» رواه البخاري ومسلم.

ولهذا كان من خير ما يربى عليه السالكون مدارسة سيرته وهديه وتقليب النظر فيها وإدمان مطالعتها واستحضار معناها وسرها، وأخذها بكليتها دون اجتزاء أو اعتساف.

إن الله ﷻ لم يجعل لأحدٍ وراء رسول الله ﷺ هذا المنصب الشريف: منصب القدوة والأسوة؛ لأنه جمع هدى السابقين الذين أمر أن يقتدي بهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] إلى ما خصه الله -تعالى- وخيّره به من صفات الكمال ونعوت الجمال، ولهذا قال -سبحانه-: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن حياته ﷺ وحياة خلفائه الراشدين هي المذكرة التفسيرية والترجمة العلمية لنصوص الشريعة.

وكثيرون من المسلمين، وربما من خاصتهم يستهويهم التأسي بالأحوال العملية الظاهرة في السلوك والعبادة وغيرها، فيقتدون به ﷺ في صلاته «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» وحجّه «**خذوا عني مناسككم**» وسنن اللباس والدخول والخروج.

وهذا جزء من الاتباع المشروع، بيد أنه ليس كله، ولا أهم ما فيه، فإن اتباع الهدي النبوي في المعاملة مع الله تعالى، والتجرد والإخلاص، ومراقبة النفس، وتحقيق المعاني المشروعة من الحب والخوف والرجاء أولى بالعناية وأحق بالرعاية، وإن كان ميدان التنافس في هذا ضعيفاً؛ لأن الناس يتنافسون -عادة- فيما يكون مكسبة للحمد والثناء من الأمور الظاهرة التي يراها الناس، ولا يجدون الشيء ذاته في الأمور الخفية التي لا يطلع عليها إلا الله، وربما تحرى امرؤ صفة نبوية في عبادة أو عمل واعتنى بها وتكلف تمثلها فوق المشروع، دون أن يكلف نفسه عناء

التأمل في سر هذه الصفة وحكمتها وأثرها في النفس.

وهذه المسائل، حتى التعبدية منها؛ ما شرعت إلا لمنافع الناس ومصالحهم العاجلة والآجلة، وليست قيمتها في ذاتها فحسب، بل في الأثر الذي ينتج عنها فيراه صاحبه ويراه الآخرون.

وقد جمعت من بطون الكتب والمؤلفات هديه ﷺ وشمائله ووصفه وخصائصه، ومعجزاته، إلى غير ذلك من جوانب عظمته ﷺ.

مع ذكر نقولاتٍ من الكتب السابقة والتي اشتملت على البشارات ببعثته وبزوغ دينه وعلو شأنه.

إضافة إلى التعريف بهذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله ﷻ للبشرية ليكون الدين الخاتم الذي لا نجاة إلا باتباعه والدخول فيه فببعثته ﷺ صار الإسلام هو الدين المهيمن على الدين كله، وقد بينت طرفًا من عظمة الإسلام وسماحته، وخصائصه وفضائله.

وتجد في ثنايا الكتاب ردًا لشبهات أهل الغي والبطلان حول نبينا ﷺ ودينه الخالد حتى تقوم الساعة.

وقد ألمحت إلى موقف الغرب من ديننا ونبينا ﷺ، وختمت الكتاب بدعوة إلى نصرة المصطفى ﷺ.

فهلموا معاشر الأنصار، يا حماة الإسلام ويا دعاة العقيدة الصحيحة بينوا دينكم واصدعوا بآيات كتاب ربكم، وأسمعوا الدنيا نداء الحق، حتى تبرأ الذمة وتقوم الحجة ويصير الدين كله لله أو نهلك دونه.

رزقنا الله حب نبيه وحسن اتباعه ظاهراً وباطناً وحشرنا في زمرته مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

نور الرسالة المحمدية يشرق على الأرض

جاء الإسلام، وقد أصاب الديانات السائدة في العالم الانحلال والبوار، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق. وكثرت فيهم المعاصي، ونشأ فيهم على توالى الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجرى مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيرًا بالغًا جدًا.

أما اليهودية، فقد انقلبت رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر، والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية، فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي؛ لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب: فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السّوِيق والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة -وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد- فيقيم فيه شهر رمضان،

ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضجّة الحياة وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعد لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ. . . دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله.

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة -وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تبعث الرسل- بدأت طلائع النبوة تلوح وتلمع، فمن ذلك أن حجرًا بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان يرى الرؤيا الصادقة؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر -ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة- فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن.

كان ذلك يوم الاثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م.

وكان عمره ﷺ إذ ذاك أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا.

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله عنها تروى لنا قصة هذه الوقعة التي كانت نقطة بداية النبوة، وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال حتى غيرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ، قالت عائشة رضي الله عنها.

أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: قال: (ما أنا بقارئ)، قال: (فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾)، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: (زمِّلُونى زملونى)، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: (ما لي؟) فأخبرها الخبر، (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة -وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي- فقالت له خديجة: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها

جذعا، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجيّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينْشبْ ورقة أن توفي.

البشارة بنبوة محمد ﷺ في الكتب السابقة

يقول القس السابق/ إبراهيم خليل فيلبس الذي تسمى بعد أن من الله عليه بنعمة الإسلام واتباع شريعة خير الأنام، يقول في كتابه: (محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن).

«في ذروة العمل الديني كقسيس راعي الكنيسة الإنجيلية، وأستاذ العقائد واللاهوت بكلية اللاهوت الكندية بأسيوط، وزميل للمراسلين الأمريكيين والسويسريين والألمانيين بمصر، وكضالعٍ معهم في الحركة التبشيرية من قمة هذا العمل، بدأت دراسة مقارنة للإسلام مع المسيحية من عام ١٩٥٥ حتى ٢٥/ ١٢/ ١٩٥٩ عندما أعلنت إسلامي بمصر، ثم اتخذت الإجراءات القانونية لإشهار الإسلام، وكان عمري وقتئذ ٤٠سنة، واليوم قد بلغت ١٣/ ٨/ ١٩٨٢ - ١٣/ ١/ ١٩١٩ بلغت ٦٣سنة وسبعة شهور.

أقول ويقول كبار اللاهوتيين المعاصرين:- بالرغم من البصمات البشرية الفادحة من زيادةٍ وحذف، ومن تغييرٍ وتبديل، ومن إسقاطٍ وإقحامٍ في أسفار الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) فإنه لازالت أجزاءٌ برمتها على حالتها الأولى فلم تصب ببصماتٍ بشريةٍ على الإطلاق، ظلت أصلية، برهانٌ ساطع على قطعٍ من التوراة الأصلية، وقطع من مقالات المسيح عيسى بن مريم الأصلية، وهي الإنجيل الأصلي، نعم فالكتاب المقدس المتداول الآن على اختلاف الترجمات في عصرنا هذا، وأمامي نسخة للترجمة العربية البيروتية / الطبعة الثامنة - عام ١٩٣٦ بمعرفة

جمعية التوراة الأمريكية المنشأة عام ١٨١٦ بنيويورك، لا زال يشمل أجزاءً هامة ووحيدة للتوراة والإنجيل الحقيقيين، وهي كثيرةٌ والحمد لله، حتى أن كل من يؤمن بالله وبرسوله المسيح عيسى بن مريم ويتبع الكتاب المقدس تمامًا في حالته الراهنة، فإن الكتاب المقدس بما يشمله من أجزاء أصلية سيقوده إلى الإسلام ولا ريب. إن أولئك الذين يتبعون تعاليم موسى تمامًا، وأولئك الذين يتبعون تعاليم عيسى تمامًا عليهما السلام، حتى في حالتهما المتداوله إنما يقادون بفضل الله ونعمته إلى إنجاز وإيفاء ما يطلبه الله منهم.

ولا ريب أن هذا الاختيار الروحي قد مارسه ذوو العقول المتحررة، والقلوب المتعطشة إلى معرفة الحق، ولا غرو أن أقدم ذاتي مثالاً حيًا حتى بعد أن جاوزت الثالثة والستين من العمر أن الله شرح صدري للإسلام فأخذت طريقي إليه هجرةً إلى الله ورسوله.

يحتوي الكتاب المقدس على نصوص شديدة الوضوح حول رسالة وشخصية الرسول النبي الأمي محمد ﷺ، وضوحًا بينًا لا لبس فيه.

حتى إن كثيراً من اليهود والنصارى الغيورين ليسعدون بقبول محمدٍ رسولاً نبيًا بعد ظهوره.

ولكن القرون اللاحقة للمنازعات اللاهوتية، والتي انعقد لأجلها العديد من المجامع المسكونية، شهدت موجةً رهيبةً ومحمومةً لتدوين المخطوطات المقدسة، وما أصابها من تحويرٍ وتنقيحٍ وزيادةٍ ونقصٍ وحذفٍ وإقحامٍ، كانت هذه البصمات البشرية في تدوين الكتاب المقدس غشاوةً سميكةً تخفي الحقيقة، وفي هذه القرون، ولد قانون الإيمان وغشي بشروحاتٍ مذهبية، فإذا ما نحيت هذه وتلك فإن الحقيقة ستظهر في جلاءٍ ووضوح، ومن ثم يستطيع العلماء الباحثون أن يهتدوا إلى الخيوط الربانية.

نحن معاشر المسلمين نؤمن أن التوراة الأصلية والإنجيل الأصلي موحى بهما من الله على عبديه ورسوليه موسى وعيسى عليهما السلام، ونحن معاشر المسلمين نعلم أن المسيح عيسى ابن مريم بعثه ربه رسولاً إلى بني إسرائيل، فلما ابتدأ رسالته الجهارية بينهم، وجد أن توراة موسى قد تعرضت لبصماتٍ بشريةٍ، فلقد فقدت في عهد مملكة يهوذا، واكتشفت في أيام يوشيا ملك يهوذا، ثم تعرضت للضياع حتى الغزو البابلي في عهد نبوخذ نصر ملك بابل، ثم أعيد تدوينها بعد عودة اليهود المسبيين في بابل إلى أرض فلسطين في عهد كورش ملك الفرس، من ثم تعرضت التوراة إلى عوامل تغيير جسيمة وخطيرة للغاية، لقد تعرضت في إعادة التدوين إلى اللامبالاه، وإضافات توحي بمذاهب وعقائد المحررين والنساخ، ومع هذا فإن المسيح رأى فيها أجزاء ما زالت على أصلها من وحي الله دون أن تمسه يدٌ ولا فكرٌ بشري؛ ولهذا جاهر بقوله لليهود المتعنتين وغيرهم: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرفٌ واحدٌ أو نقطةٌ واحدةٌ من الناموس حتى يكون الكل» [إنجيل متى ١٧ : ٥ - ١٨]، وبهذا التصريح فإن المسيح ابن مريم يصادق على جوهر التوراة، ولقد تعرض إنجيل المسيح عبر ستمائة سنة مثلما عانت التوراة من البصمات البشرية فضلاً عن رداءة الخط في التدوين والنسخ، بالإضافة إلى المخطوطات العبرية والآرمية واليونانية التي أُعد بها كتاب العهد الجديد.

يقول كيرت: [Its Original Composition . theolatestament ،Curtkuhi]

[London، ١٠٦١ / PP . ٥١، ٥٢، ٧٤].

«إن الكتاب المقدس المتداول حاليًا لا يحتوي على التوراة والإنجيل المنزلين من الله، ولقد اعترف علماء باحثين أنفسهم باللمسات البشرية في إعداد هذا الكتاب المقدس».

ويقول جيمس هيستنج:

James Hasting، Dictionury of the Bible (new york، ١٩٦٣) P، p ٥٦٧-٥٦٩

«ومع هذا فإننا نتوقع أن نجد خلال صفحات الكتاب المقدس بعض الأجزاء من التوراة والإنجيل الأصليين مما يتحتم معه دراسة جادة؛ لكي تجعل مضمون الكتاب المقدس مفهومًا» إن ما يتميز به الكتاب المقدس حتى في حالته الراهنة، هو أنه يشير إلى أن التنزيل الإلهي إنما يتوالى على من اصطفاهم الله لحمل رسالته من الأنبياء والمرسلين، وسيكمل التنزيل بالنبي الخاتم، نبيٌ وحيدٌ واحدٌ مميز، ورسالته ستكون مستوعبةٌ ومهيمنةٌ، ونبوته ستكون عالمية حتى إنه لن يكون هناك حاجةٌ لرسولٍ بعده.

بشارات من التوراة:

لقد تنبأ سيدنا موسى عليه السلام ببعث الرسول الكريم في عدة آيات:

١- قال في سفر التثنية [٣٣:٢] «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران».

٢- في سفر أشعياء [٦٠:١-٧]: «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك؛ لأنه هاهي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليك يرى، فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك، ارفعي عينيك حواليك وانظري، قد اجتمعوا كلهم، جاءوا إليك يأتي بنوك من بعيد، تحمل بناتك على الأيدي، حينئذٍ تنظرين وتنيرين، يخفق قلبك ويتسع؛ لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم، تعطيك كثيرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهبًا ولبانًا، وتبشر بتسابيح الرب كل غنم قيدار، تجتمع إليك كباش نبايوت تخدمك تصعد إليك مقبولةً على

مذبحي وأزين بيت جمالي». وقيدار: هو ابن سيدنا إسماعيل عليه السلام انظر التكوين [١٢: ٢٥-١٨، تكوين١٣: ٢١].

٣- وفي أشعياء [١٠: ٤٢-١٣]: «غنوا للرب أغنيةً جديدة، تسبيحةً من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر ومائه، والجزائر وسكانها؛ لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لترنم سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا مجدًا، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر، الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه». وسالع جبل في المدينة.

وهنا نتساءل أين الرسول محمد ﷺ في تلكم الآيات؟ وللإجابة على هذا نجد صلة نسب الرسول الكريم من نبايوت بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم أفضل الصلوات والسلام، وهذه السلسلة النبوية الكريمة يدونها موسى عليه السلام هكذا: «وهذه أسماء بني إسماعيل حسب نبايوت بكر إسماعيل، وقيدار. . . . اثني عشر قبيلة».

ويزداد الأمر وضوحًا وإشراقًا بذكر رموز خاصة «كثرة الجِمال» «يأتي إليك غنى الأمم»، «غنم قيدار»، «كباش نبايوت»، «تصعد مقبولة على مذبحي»، إشارة إلى يوم النحر بمنى، و«جبل عرفات بمكة»، «الجزائر وسكانها»، «الديار التي سكنها قيدار»، «الرب كالجبار يخرج كرجل حروب وينهض».

٤- وفي سفر حبقوق: [٤، ٣: ٣] قال نبي العهد القديم: «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران سلاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع وهناك استتار قدرته». يتنبأ حبقوق بالرسول، والرسالة، وامتداد رقعة الإسلام، فيوضح سلالة نسب الرسول الكريم بمنبت جده إسماعيل عليه السلام في أرض فاران، ثم يتحدث عن امتداد الإسلام حيث تسبح الأرض بحمده قائله: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، ثم يتحدث عن

الركع والسجود الذين يملأون الأرض بحمده وتسبيحه، ثم يتحدث عن الإعجاز للقرآن الكريم.

من هو قيدار؟!

تُبين نصوص الكتاب المقدس أن قيدار رمزٌ للعرب عامة، أبناء إسماعيل عليه السلام. إن الكتاب المقدس على بينة بأن في نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام النبي الخاتم، ومن ثم فإن الكتاب المقدس يحمل كل الدلالات على إثبات نسب هذا النبي الخاتم.

بينما يحاول اليهود بكل الطرق أن يبينوا أن إسماعيل ليس ابنًا شرعيًا لإبراهيم.

والكتاب المقدس يحمل كل الدلالات على بنوة إسماعيل الحقيقية، فضلاً عن كونه بكر إبراهيم، ولم ولن يكون بأي ذريعةٍ يتذرع بها أحبار اليهود ابنًا غير شرعي.

نصوص الكتاب المقدس التي تبين أن قيدار رمزٌ للعرب: «فاعبروا جزائر كتيم، وانظروا وأرسلوا إلى قيدار وانتبهوا جدًا، وانظروا هل صار مثل هذا، هل بدلت أمةٌ آلهةً وهي ليست آلهة، أما شعبي فقد بدل مجده بما لا ينفع، ابهتي أيتها السماوات من هذا واقشعري وتحيري جدًا بقول الرب؛ لأن شعبي عمل شرّين، تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم أبارًا مشققة لا تضبط ماء» (إرميام: ١٠-١٣).

ويقول حزقيال: «العرب وكل رؤساء قيدار هم تجاريدك بالخرفان والكباش، والأعتدة في هذه كانوا تجارك» (حزقيال ٢٧: ٢١).

ويقول أشعياء: «كل غنم قيدار تجتمع إليك كباش نيابوت تخدمك تصعد مقبولة على مذبحي وأزين بيت جمالي» (أشعياء ٧: ٦٠)، وهذه النصوص تؤكد على أن ذرية قيدار صارت مرموقة عند الله سبحانه، وليست هذه الشهرة عفوًا، ولكن بهدف

رباني، وغرض لا مثيل له؛ ليؤكد لبني إسرائيل أن من نسل هذا يولد الذي حياته وأعماله فضلاً عن سمو ذاته سيتحقق فيه النصيب المضاعف لحقوق البكر من المجد لسلالة إسماعيل ولا ريب.

إن طبيعة المجد المضاعف تبدأ بالظهور في العهد القديم في سفر أشعياء التي تتعلق بإيفاء وعد الله ليبارك به الجنس البشري «ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض» (تكوين ١٨ : ٢٢) من خلال ذرية إبراهيم.

ومع هذا الوضوح إلا أن بعض المفسرين سواء أكانوا يهودًا أم نصارى، يزعمون أن هذه البركات إنما تنصب انصبابًا على المسيح عيسى ابن مريم في ذاته وفي رسالته، ويقف الإصحاح الثاني والأربعون من سفر أشعياء ليجلي الحقيقة في أيهما يكون المجد المضاعف في عيسى أم محمد فيقول:

«هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم» إلى أن يقول: «لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته» (أشعياء: ٤٢: ١-٤)، فأشعياء يتنبأ عن نبي تشكل نبوته اشتمالاً للجنس البشري كافة، بعكس أنبياء بني إسرائيل ومنهم المسيح عيسى ابن مريم الذي تحددت رسالتهم إلى بني قومهم من بني إسرائيل.

وأشعياء يتنبأ عن رسالة هذا النبي، بل عن ذاته قائلاً: «وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم» (أشعياء ١ : ٤٢).

فسيقوده الروح الأمين لوضع رواسخ وأسس العدل الاجتماعي في الأرض، وعن ذاته وصفاته فيقول أشعياء: «لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته»

بمقابلة هذا مع رسالة عيسى ابن مريم، فضلاً عن قصر مدتها إذ لا تعدو سنوات ثلاث ونصف السنة، هذا بينما نبوة هذا النبي من سلالة إسماعيل سيمتد بها الأجل لفترةٍ كافية لاستتباب الحق على الأرض؛ ولتأسيس مجتمع مؤمن موحد حقًا،

وشعبٌ أسس العدل والحق والنقاء والطهارة الجوانية والظاهرية، ومن ثم فإنه سيصبح كما تنبأ أشعياء قائلاً: «أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم» (أشعياء ٤٢: ٦).

ومحمدٌ ﷺ سليل إسماعيل هو وحده الذي تتطابق شخصيته مع شخصية الجد الأعلى قيدار، إذ يتنبأ أشعياء فيقول في وضوح وجلاء: «لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان طالع؛ من رؤوس الجبال ليهتفوا» (أشعياء ٤٢: ١١).

وتزداد نبوءة أشعياء وضوحًا عن ذات النبي سليل إسماعيل فيقول: «هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي، وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمع في الشارع صوته، قصبةً مرضوضةً لا يقصف، وفتيلةً خامدةً لا يطفئ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته» (أشعياء ٤٢- ١-٣).

ويقول: «هكذا يقول الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمةً، والساكنين فيها روحًا، أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب، ونورًا للأمم؛ لتفتح عيون العمى لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة» (اشعياء ٤٢: ٥-٧)، وكذلك فإن أشعياء تنبأ فقال عن سلالة إسماعيل سكان جزيرة العرب: «لترفع البرية ومنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا؛ ليعطوا الرب مجدًا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر، الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى أعدائه» أشعياء (٤٢: ١١-١٣).

إن هذه النبوة لا تنطبق على أحدٍ في أنبياء بني إسرائيل حتى المسيح عيسى ابن مريم

الذي يكفينا في بيان محدودية رسالته قوله حين قالت له المرأة الكنعانية: «ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتي مجنونة جدًا (متى ١٥ : ٢٢)، فرد عليها وأجاب: «قال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥ : ٤).

زد على ذلك أنه أوصى تلاميذه قائلاً: «إلى طريق أمم لا تمطوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠ : ٥-٦)، من هذين النصين على حسب رواية متى يتبين أن رسالة المسيح كانت محددة لبني قومه.

فهذه الشواهد تبين بكل وضوح أن يسوع المسيح لم يجعل لرسالته طبيعة الشمول، ولم يكن المسيح عيسى ابن مريم أو أي أحد من الأنبياء العبرانيين ينتمي بأي شكلٍ إلى قيدار، إذن فإن الوعد بنبيٍ عظيمٍ من بين العرب هو ما أشار إليه أشعياء باستيفاء حول النبوة بسليل قيدار، ولم يكن أشعياء إلا مؤيدًا لموسى كليم الله، فإن الله سبحانه قد أوحى إلى عبده موسى عليه السلام بأن الله سيقيم نبيًا من وسط إخوتهم.

إن العرب سلالة إسماعيل الابن البكر لإبراهيم أبناء عم إسحاق الابن الثاني لإبراهيم، يستحوذون انتباه عالمي ورجاء الأمم، إذ جاء في التوارة: «أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي أتكلم به باسمي أنا أطلبه» (تثنية ١٨ : ١٨، ١٩).

هذا المنتظر يتحتم أن يكون مؤسسًا وقائدًا ورائدًا لمجتمع أهل الإيمان، هذا فضلاً عن أن رسالة هذا النبي المرتجى ستمكث أمدًا طويلاً كافيًا لإنجاز أهداف حقيقية متماسكة.

نبوءات من الإنجيل:

١- يسوع يخبر تلاميذه بالرحيل:

«لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا فإني كنت قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكانًا» [يوحنا: ١٤: ٢،١].

٢- يسوع يخبر تلاميذه بالنبي المنتظر:

«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق» [يوحنا ١٤: ١٥-٧].

٣- يسوع يؤكد لتلاميذه ملامح النبي المنتظر:

«بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعزى الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» [يوحنا ١٤: ٢٥، ٢٦].

٤- يسوع يثني تأكيداته عن شخصية النبي المنتظر:

«ومتى جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم عن الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضًا معي من الابتداء» [يوحنا ١٥: ٢٦، ٢٧].

إن ما جاء على حسب رواية يوحنا من وصف لذلك النبي الخاتم إنما هو وصفٌ ناطق واضحٌ وجلي، فجاءت الكلمة (المعزى) وهي الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية Comforter وهي ترجمة للكلمة اليونانية (البارقليط) Parakletos كما جاءت في كتاب العهد الجديد الترجمة اليونانية، هذه الكلمة تعني بأكثر دقة (المحامي) Advocate أي: الإنسان الذي يدافع عن حقوق الآخرين، بل هو الإنسان الذي يحرص على المؤمنين وينصحهم في شئونهم من أجل سعادتهم ورفاهيتهم، إن كلمة (البارقليط) تشير إلى هذا المعنى، بل تشير إلى الإنسان الذي

هو رحيم بالبشرية، وفي هذا قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]، بل هو: الإنسان المرشد والناصح الأمين الذي يقود أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي هذا قال سبحانه: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطّلَاق: ١١].

هو ذلك المحامي الأمين الذي يحرص على المؤمنين وفي هذا قال الله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التّوبَة: ١٢٨].

فهو الحريص الصادق من أجل رفاهية الإنسانية، يشفع للإنسانية ويهديهم الطريق السوي، ويجعل لهم الخطوة عند الله، فيلقون الله يوم الدين موقنين أنه وحده الديان في ذلك اليوم، ومهما اعتقد العلماء الباحثون أن حديث يسوع المسيح عن المعزى بلسانه الآرمي بأنه يمثل في دقة متناهية الترجمة اليونانية Peroklytos التي تعني المعجب Admirable أو الممجد Glorified فكلمة (الباراقليط) تطابق (محمد) أو (محمود) في اللغة العربية.

* يقول سيدنا عيسى عليه السلام للحواريين: «إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون الآن أن تحتملوا، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمورٍ آتية» (إنجيل يوحنا: ١٦: ١٢و١٣).

* وهكذا يسمي سيدنا عيسى عليه السلام نبي الحق محمد ﷺ «روح الحق».

* وقال عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: [متى: ٧: ٢١، ٢٣] «ليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات، كثيرون يقولون لي في ذلك اليوم: يا رب يا رب، أليس باسمك تنبأنا، وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ

أصرح لهم أني لم أعرفكم قط، اذهبوا عني يا فاعلي الإثم»، ويقول: «أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم، ويعطي لأمةٍ تعمل أثمارة» (سفر اشعياء: ٢٩: ٢٣-١٦). فيعظ عيسى الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقين ويندد بهم وبأفعالهم، ويقرر لهم قرار الرب ﷻ بانتزاع النبوة والكتاب من ذرية إسحاق إلى ذرية من؟

استمع إلى حديث النبي ﷺ ليبين لك ما المقصود بالحجر؟

قال الرسول ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنةٍ في زاويةٍ من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون: ألا وُضِعت هنا لبنةٌ فيتم البناء؟ قال ﷺ: فأنا اللبنة، جئت فختمت الأنبياء**» [رواه مسلم].

ولعلك أيها القارئ العزيز استطعت أن تدرك بالحجر أنه مجاز عن الرسول الكريم كما أن فاران مجاز عن الأرض التي سكنها جد الرسول سيدنا إسماعيل عليه السلام.

هل رسالة عيسى عليه السلام كانت عالمية؟

جاء في إنجيل متى (١٥: ٢٢) أن امرأةً كنعانية جاءت إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قائلةً: «ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتي مجنونةٌ جدًا» فرد عليها وأجاب: قال: «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥: ٤) أضف إلى ذلك أنه أوصى تلاميذه قائلاً: «إلى طريق أممٍ لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٠: ٥-٦).

مولده ﷺ ونشأته

ولد ﷺ في عام الفيل، تُوفي والده ورسول الله ﷺ حمل، وتُوفيت أمه بين مكة والمدينة «بالأبواء» [موضع بين مكة والمدينة] منصرفها من المدينة من زيارة أخواله، ولم يستكمل إذ ذاك سبع سنين.

وكفله جده عبد المطلب، وتوفي عبد المطلب ولرسول الله ﷺ نحو ثمان سنين أو أكثر، ثم كفله عمه أبو طالب، واستمرت كفالته له وعمل مع عمه في التجارة.

اسمه ونسبه ﷺ

هو خير أهل الأرض نسبًا على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذِروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، ابن قصي بن كِلاب، بن مُرة، بن كعب بن لؤي، بن غالب، بن فهر، ابن مالك بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مُدرِكة، بن إلياس، ابن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان. وعدنان من ولد إسماعيل الذبيح عليه السلام.

ولما بلغ خمسًا وعشرين سنةً تزوج خديجة بنت خويلد، وهي أول امرأة تزوجها، وأول امرأة ماتت من نسائه.

بداية مبعثه ﷺ

ثم حبب الله إليه الخلوة، والتعبد لربه، وكان يخلو بـ«غار حراء» يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وبُغِّضت إليه الأوثان ودين قومه، فلم يكن شيءٌ أبغض إليه من ذلك.

فلما كمُل له أربعون، أشرق عليه نور النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه واختصه بكرامته، وجعله أمين بينه وبين عباده.

ولا خلاف أن مبعثه كان يوم الإثنين في أحد شهور سنة إحدى وأربعين بعد عام الفيل.

وقد بعثه الله على رأس أربعين سنة، وهي سن الكمال، وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو في «غار حراء»، وكان يحب الخلوة فيه، فكان أول ما نزل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١].

وكمل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه.

الثالثة: أن يتمثل له الملك في صورة رجل، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيتلبس به الملك.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك.

أسمائه ﷺ

محمد ﷺ هذا الاسم هو أشهر أسمائه ﷺ، وهو اسمٌ منقولٌ من الحمد، وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعظيمه.

فمحمد هو الذي كثُر حمد الحامدين له مرةً بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرةً بعد أخرى.

فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمودٌ عند الله ومحمودٌ عند ملائكته، ومحمودٌ عند إخوانه من المرسلين، ومحمودٌ عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحودًا وعنادًا وجهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامدٌ له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد لما لا يجتمع لغيره، فإن اسمه محمدٌ وأحمدٌ، وأمته الحمادون يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحةٌ بالحمد، وخُطبته مفتتحةٌ بالحمد، وكتابه مفتتحٌ بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ، إن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحًا بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة ويؤذن له

يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذٍ أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم، أولهم وآخرهم، وهو محمودٌ ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدى والإيمان والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين، ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتى نال أتباعه الدنيا والآخرة، فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عُبّاد أوثان، وعُبّاد صلبان، وعُبّاد نيران، وعبّاد كواكب، ومغضوبٌ عليهم قد باءوا بغضبٍ من الله، وحيران لا يعرف ربًا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا من استحسن شيئًا دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدمٍ مشرقٌ بنور الرسالة، وقد نظر الله سبحانه إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا على آثار دينٍ صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد وكشف به تلك الظُلم وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة، وكثر بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيْلة، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية مايمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتى تجلت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجةً في هذا التعريف لا إلى من قبله ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسنًا إلا أمرهم به، ولا قبيحًا إلا نهى عنه، وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع بابًا من العلم النافع للعباد المقرب لهم

إلى ربهم إلا فتحه، ولا مُشْكِلاً إلا بينه وشرحه حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشرٍ أحق بأن يحمد منه ﷺ؟! وجزاه عن أمته أفضل الجزاء.

ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق وأعظمهم أمانةً وأصدقهم حديثًا، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفوًا ومغفرةً، وكان لا يزيد شدة الجهل عليه إلا حلمًا.

وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله وأحسنهم تعبيرًا عن المعاني الكثيرة؛ بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأةً على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعًا، وأعظمهم إيثارًا على نفسه، وأشد الخلق ذبًا عن أصحابه، وحمايةً لهم ودفاعًا عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهي عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فلما كان رسول الله ﷺ مشتملاً على ما يقتضي أن يحمد مرةً بعد مرةٍ سُمي محمدًا، وهو اسمٌ موافقٌ لمسماه، ولفظٌ مطابقٌ لمعناه.

وله ﷺ من الأسماء التي هي نعوت، وأسماءٌ مشتقةٌ من صفاتٍ قائمةٍ به توجب له المدح والكمال، وقد قدمنا منها محمد وهو أشهرها، وبه سُمي في التوراة، ومنها أحمد: وهو الاسم الذي سماه به المسيح عليه السلام.

ومنها: المتوكل، ومنها الماحي والحاشر، والعاقب، والمُقفِّي، ونبي التوبة، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة، والفاتح والأمين.

ويلحق بهذه الأسماء: الشاهد، والمبشر، والبشير، والنذير، والقاسم، والضحوك، والقتال، وعبد الله، والسراج المنير، وسيد ولد آدم، وصاحب لواء

الحمد، وصاحب المقام المحمود، وغير ذلك من الأسماء؛ لأن أسماءه إذا كانت أوصاف مدح، فله من كل وصف اسم، لكن ينبغي أن يفرق بين الوصف المختص به، أو الغالب عليه، ويشتق له منه اسم، وبين الوصف المشترك، فلا يكون له منه اسم يخصه.

وأسماؤه ﷺ نوعان:

أحدهما: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل، كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفي، ونبي الملحمة.

والثاني: ما يشركه في معناه غيره من الرسل، ولكن له منه كماله، فهو مختص بكماله دون أصله، كرسول الله، ونبيه، وعبده، والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة.

أما إن جعل له من كل وصفٍ من أوصافه اسم، تجاوزت أسماؤه المائتين، كالصادق والمصدوق، والرؤوف الرحيم، إلى أمثال ذلك.

شرح معاني أسمائه ﷺ

أما أحمد: فهو اسمٌ على زنة أفعل التفضيل، مشتقٌ من الحمد، وتقديره أنه: أحمد الناس لربه، وقيل تقديره: أحق الناس وأولاهم بأن يحمد، فيكون كمحمد في المعنى، إلا أن الفرق بينهما أن محمدًا هو كثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد هو الذي يحمد أفضل مما يحمد غيره، فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، وأفضل مما يستحق غيره، فيحمده أكثر حمد، وأفضل حمدٍ حمده البشر.

وأما اسمه المتوكل: فهو ﷺ أحق الناس بهذا الاسم؛ لأنه توكل على الله في

إقامة الدين توكلاً لم يشركه فيه غيره.

وأما الماحي: فهو الذي محا الله به الكفر، ولم يمح الكفر بأحدٍ من الخلق ما محي بالنبي ﷺ؛ فإنه بُعِث وأهل الأرض كلهم كفار، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عباد أوثان، ويهود مغضوبٌ عليهم، ونصارى ضالين، وصابئة دهرية، لا يعرفون ربًا ولا معادًا، وبين عباد الكواكب، وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء، ولا يقرون بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دين الله على كل دين، وبلغ دينه ما بلغه الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار.

وأما الحاشر: فالحشر هو الضم والجمع، فهو الذي يحشر الناس على قدمه، فكأنه بعث ليحشر الناس.

والعاقب: الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سمي العاقب على الإطلاق أي: عقب الأنبياء جاء بعقبهم.

وأما المقفي: فهو الذي قفّى على آثار من تقدمه فقفّى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفي من قبله من الرسل، فكان خاتمهم وآخرهم.

وأما نبي التوبة: فهو الذي فتح الله به باب التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبةً لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله، وكان ﷺ أكثر الناس استغفارًا وتوبةً.

وأما نبي الملحمة: فهو الذي بعث بجهاد أعداء الله، فلم يجاهد نبيٌ وأمته قط ما جاهد رسول الله ﷺ، والملاحم الكبرى التي وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار

لم يُعهد مثلها قبله، فإن أمته يقتلون الكفار في أقطار الأرض على تعاقب الأعصار، وقد أوقعوا بهم من الملاحم ما لم تفعله أمة سواهم.

وأما نبي الرحمة: فهو الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلهم مؤمنهم وكافرهم، أما المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأما الكفار فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظله، وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمته، فإنهم عجلوا به إلى النار، وأراحوه من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلا شدة العذاب في الآخرة.

وأما الفاتح: فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجًا، وفتح به الأعين العمي، والآذان الصم، والقلوب الغلف، وفتح الله به أمصار الكفار، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح، ففتح به الدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع الأبصار والأمصار.

وأما الأمين: فهو أحق العالمين بهذا الاسم فهو أمين الله على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماء، وأمين من في الأرض؛ ولهذا كانوا يسمونه قبل النبوة: الأمين.

وأما الضحوك القتّال: فاسمان مزدوجان، لا يفرد أحدهما عن الآخر، فإنه ضحوكٌ في وجوه المؤمنين، غير عابسٍ، ولا مقطبٍ، ولا غضوبٍ، ولا فظٍ، قتالٌ لأعداء الله، لا تأخذه فيهم لومة لائم.

وأما البشير: فهو المبشر لمن أطاعه بالثواب.

والنذير: المنذر لمن عصاه بالعقاب، وقد سماه الله عبده في مواضع من كتابه، وسماه الله سراجًا منيرًا، وسمى الشمس سراجًا وهاجًا.

والمنير: هو الذي ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج، فإن فيه نوع إحراق وتوهج.

رسول الهداية

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] ، فلا تشرك معه في عبوديته أحدا، ولا تعد من دونه إلها آخر، بل تصرف له عبادتك، وتخلص له طاعتك، وتوحّد قصدك له ومسألتك ودعاءك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فلا يستحق العبادة إلا هو، ولا يكشف الضرّ غيره، ولا يجيب دعوة المضطر سواه.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فهو أحق من شُكر وأعظم من ذكر، وأرأف من ملك، وأجود من أعطى، وأحلم من قدر، وأقوى من أخذ، وأجلّ من قصد، وأكرم من ابتغي، فلا يدعى إله سواه، ولا رب يطاع غيره، فالواجب أن يُعبد وأن يُوحّد وأن يُخاف وأن يُطاع وأن يُرهب وأن يُخشى وأن يُحب.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] المتفرد بالجمال والكمال والجلال، خلق الخلق ليعبدوه، وأوجد الإنس والجن ليوحّدوه، وأنشأ البريّة ليطيعوه، فمن أطاعه فاز برضوانه، ومن أحبّه نال قربه، ومن خافه أمن عذابه، ومن عظمه أكرمه، ومن عصاه أدّبه، ومن حاربه خذله، يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويذلّ من كفره، له الحكم وإليه ترجعون.

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فأخلص له العبادة، لأنه لا يقبل الشريك، وفوّض إليه الأمر لأنه الكافي القويّ، واسأله فهو الغني، وخف عذابه لأنه شديد، واخش أخذه لأنه أليم، ولا تتعدّ حدوده لأنه يغار، ولا تحارب أولياءه، لأنه ينتقم، واستغفره فهو واسع المغفرة، واطمع في فضله لأنه كريم، ولذ بجنابه فهناك الأمن، وأدم ذكره لتنل محبته، وأدمن شكره لتحظى بالمزيد، وعظم شعائره لتفوز بولايته، وحارب أعداءه ليخصّك بنصره.

تبدأ النبوة بكلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] يوم نزلت على رسولنا ﷺ في الغار، ومن بداية ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] بدأنا، بدأ تاريخنا ومجدنا وحياتنا، ومن تاريخ نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] بدأت مسيرتنا المقدّسة، وتغيّر بها وجه الأرض وصفحة الأيام ومعالم الدنيا، فتلك اللحظة هي أسعد لحظة في حياتنا نحن المسلمين، وهي اللحظة الفاصلة بين الظلام والنور، والكفر والإيمان، والجهل والعلم، واختيار اقرأ من بين قاموس الألفاظ وديوان اللغة له سر عجيب ونبأ غريب، فلم يكن مكان ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] غيرها من الكلمات، لا «اكتب»، ولا «ادع» ولا «تكلم» ولا «قل»، ولا «اخطب»... إنما ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ويا لها من كلمة جليلة جميلة أصيلة.

اقرأ يا محمد قبل أن تدعو، واطلب العلم قبل أن تعمل ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محَمَّد: ١٩].

إن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] منهج حياة، ورسالة حية لكل حيّ تطالبه بتحصيل العلم النافع وطلب المعرفة، وأن يطرد الجهل عن نفسه وأمته.

وأين يقرأ بأبي وأمي وما تعلّم على شيخ ولا درس كتابا ولا حمل قلما؟

يقرأ أولا باسم ربه كلام ربّه، فمصدره الأول الوحي يتلوه غضّا طريا، ويقرأ في كتاب الكون المفتوح ليرى أسطر الحكمة تخطها أقلام القدرة، فيقرأ في الشمس الساطعة، والنجوم اللامعة، والجدول والغدير، والتل والرابية، والحديقة والصحراء، والأرض والسماء:

وكتابي الفضاء اقرأ فيه ... صورا ما قرأتها في كتابي

وكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [الإسرَاء: ١٤] تدلك على فضل العلم وعلوّ مكانته، وأنه أول منازل الشرف الرافعة.

وإن كل سعادة وفلاح سببها العلم، فرسالته ﷺ علميّة عمليّة، لأنه بعث بالعلم النافع والعمل الصالح «**مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث**» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه.

فاليهود عندهم علم بلا عمل، فغضب عليهم، والنصارى لديهم عمل بلا علم فضلوا، فأمرنا بالاستعاذة من سبيل الطائفتين ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٧].

أنت يا محمد مهمّتك الهداية، ووظيفتك الدلالة، وعملك الإصلاح.. أنت تهدي الى صراط مستقيم، لأنك تزيل الشبهات وتطرد الغواية وتذهب الضلالة، وتمحو الباطل وتشيد الحق والعدل والخير.

أنت تهدي الى صراط مستقيم، فمن أراد السعادة فليتبعك، ومن أحبّ الفلاح فليقتد بك، ومن رغب في النجاة فليهتد بهداك.

أحسن صلاة صلاتك، وأتمّ صيام صيامك، وأكمل حجّ حجك، وأزكى صدقة صدقتك، وأعظم ذكرك لربك.

وأنت تهدي الى صراط مستقيم.. من ركب سفينة هدايتك نجا، من دخل دار دعوتك أمن، من تمسّك بحبل رسالتك سلم. فمن تبعك ما ذلّ، وما ضلّ وزلّ وما قل، وكيف يذلّ والنصر معك؟ وكيف يضل وكل الهداية لديك؟ وكيف يزل والرشد كله عندك؟ وكيف يقلّ والله مؤيدك وناصرك وحافظك؟

وإنك لتهدي الى صراط مستقيم لأنك وافقت الفطرة وجئت بحنيفية سمحة، وشريعة غرّاء، وملة كاملة، ودين تام.

هديت العقل من الزيغ، وطهّرت القلب من الريبة، وغسلت الضمير من الخيانة، وأخرجت الأمة من الظلام، وحرّرت البشر من الطاغوت.

وإنك لتهدي الى صراط مستقيم، فكلامك هدى، وحالك هدى، وفعلك هدى، ومذهبك هدى، فأنت الهادي الى الله، الدال على طريق الخير، المرشد لكل برّ، الداعي الى الجنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٦٧] أدّ الرسالة كاملة كما سمعتها كاملة، بلّغها تامّة مثلما حملتها تامة، لا تنقص منها حرفا، ولا تحذف كلمة، ولا تغفل جملة.

بلّغ ما أنزل إليك فهي أمانة في عنقك سوف تُسأل عنها، فبلغها بنصّها وروحها ومضمونها.

بلّغ ما أنزل إليك من الوحي العظيم والهدى المستقيم والشريعة المطهّرة، فأنت مبلّغ فحسب، لا تزد في الرسالة حرفا، ولا تضف من عندك على المتن، لا تُدخل شيئًا في المضمون، لأنك مرسل فحسب، مبعوث ليس إلا، مكلف ببلاغ، مسؤول عن مهمة. فمثلما سمعت بلغ، ومثلما حُمّلت فأدّ.

بلّغ ما أنزل إليك، عرف من عرف، وأنكر من أنكر، استجاب من استجاب وأعرض من أعرض، أقبل من أقبل وأدبرمن أدبر.

بلغ ما أنزل إليك، بلّغ الكل وادع الجميع، وانصح الكافة، الكبراء والمستضعفين، السادة والعبيد، والإنس والجن، الرجال والنساء، الأغنياء والفقراء، الكبار والصغار.

بلّغ ما أنزل إليك.. فلا ترهب الأعداء ولا تخف الخصوم، ولا تخش الكفار، ولا يهولك سيف مصلت، أو رمح مشرع، أو منية كالحة، أو موت عابس، أو جيش مدجج، أو حركة حامية.

بلّغ ما أنزل إليك فلا يغريك مال، ولا يعجبك منصب، ولا يزدهيك جاه،

ولا تغرّك دنيا، ولا يخدعك متاع، ولا يردّك تحرّج.

وشبّ طفل الهدى المحبوب متّشحا بالخير متّزرا بالنور والنار
في كفّه شعلة تهدي وفي دمه عقيدة تتحدّى كلّ جبّار
وفي ملامحه وعد وفي يده عزائم صاغها من قدرة الباري

﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المَائدة: ٦٧] : إذا لم تؤد الرسالة كاملة فكأنك ما فعلت شيئًا، وإن لم توصلها تامّة فكأنك ما قمت بها حق القيام، ولو كتمت منها مقالة أو عطلت منها نصا أو أهملت منها عبارة فما بلّغت رسالة الله وما أدّيت أمانة الله، نريد منك أن تبلّغ رسالتنا للناس كما أُلقيت عليك، وكما نزل بها جبريل وكما وعاها قلبك.

بلغ الرسالة كاملة ولا تخف أحدا، وكيف تخاف من أحد ونحن معك نحفظك ونمنعك ونحميك ونذبّ عنك؟! لن يقتلك أحد لأن الله يعصمك من الناس، ولن يطفئ نورك أحد لأن الله يعصمك من الناس، ولن يعطّل مسيرتك أحد لأن الله يعصمك من الناس، اصدع بما تؤمر، وقل كلمتك صريحة شجاعة قوية لأن الله يعصمك من الناس. اشرح دعوتك، وابسط رسالتك، وارفع صوتك، وأعلن منهجك، وما عليك لأن الله يعصمك من الناس.

كل قوة في الأرض لن تستطيع لك، كلّ جبروت في الدنيا لا يهزمك، كل طاغية في المعمورة لن يقهرك، لأن الله يعصمك من الناس.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القَلَم: ٢] لست مجنونا كما قال أعداؤك لكن عندك دواء المجانين، فلمجنون الطائش والسفيه التافه من خالفك وعصاك وحاربك وجفاك.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القَلَم: ٢] القلم.. وكيف يكون ذلك وأنت

أكملهم عقلا، وأتمّهم رشدا، وأسدهم رأيا، وأعظمهم حكمة، واجلذهم بصيرة!

وكيف تكون مجنونا وأنت أتيت بوحي يكشف الزيغ، ويزيل الضلال، وينسف الباطل، ويمحو الجهل، ويهدي العقل، وينير الطريق.

لست مجنونا أنك على هدى من الله، وعلى نور من ربك، وعلى ثقة من منهجك، وعلى بيّنة من دينك، وعلى رشد من دعوتك، صانك الله من الجنون، بل عندك كل العقل وأكمل الرشد وأتم الرأي وأحسن البصيرة، فأنت الذي يهتدي بك العقلاء، ويستضيء بحكمتك الحكماء، ويقتدي بك الراشدون المهديّون.

كذب وافترى من وصفك بالجنون وقد ملأت الأرض حكمة والدنيا رشدا والعالم عدلا، فأين يوجد الرشد إلا عندك؟ وأين تكون الحكمة إلا لديم؟ وأين تحلّ البركة إلا معك؟ أنت أعقل العقلاء، وأفضل النبلاء، وأجلّ الحكماء. كيف يكون محمد مجنونا وقد قدّم للبشرية أحسن تراث على وجه الأرض، وأهدى للعالم أجلّ تركة عرفها الناس، وأعطى الكون أبرك رسالة عرفها العقلاء:

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من الرمم

دعوته ﷺ قومه

أقام ﷺ ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفيًا، ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحِجر: ٩٤].

فأعلن ﷺ بالدعوة، وجاهر قومه، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين.

الهجرة إلى الحبشة

ولما كثر المسلمون، وخاف منهم الكفار، اشتد أذاهم له ﷺ، وفتنتهم إياهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة، وقال: إن بها ملِكًا لا يُظلم الناس عنده، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان، وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار، فبلغهم أن قريشًا أسلمت، وكان هذا الخبر كذبًا، فرجعوا إلى مكة، فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان، رجع منهم من رجع، ودخل جماعةٌ فلقوا من قريش أذًى شديدًا، وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود.

ثم أُذن لهم في الهجرة ثانيًا إلى الحبشة، فهاجر من الرجال ثلاثةٌ وثمانون أو اثنين وثمانون رجلاً، ومن النساء ثمان عشرة امرأة، فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال فبلغ ذلك قريشًا، فأرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة؛ ليكيدوهم عند النجاشي، فرد الله كيدهم في نحورهم.

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والنجاشي

قال جعفر رضي الله عنه: أيها الملك: كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله ﷻ إلينا نبيًا ورسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله ﷻ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش

وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حُرِّم علينا، وأحللنا ما أُحلّ لنا، فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ﷻ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأ عليّ، فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تُلي عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة.

الحصار في الشعب

اشتد أذى مشركي مكة لرسول الله ﷺ، فحصروه وأهل بيته في الشعب، شعب أبي طالب ثلاث سنين، وقيل: سنتين، وخرج من الحصر وله تسعٌ وأربعون سنةً، وقيل: ثمانٍ وأربعون سنةً، وبعد ذلك بأشهرٍ مات عمه أبو طالب وله سبعٌ وثمانون سنةً، فنال الكفار منه أذًى شديدًا، ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير، فاشتد أذى الكفار له.

الخروج إلى الطائف

خرج إلى الطائف هو وزيدٌ بن حارثة لما اشتد أذى قريش له وتوفيت زوجته، خرج يدعو إلى الله تعالى، وأقام بها أيامًا فلم يجيبوه، وآذوه وأخرجوه، ورجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه، فانصرف عنهم ﷺ راجعًا إلى مكة.

وفي طريق رجوعه بموضع يقال له نخله، صُرف إليه نفرٌ من الجن سبعةٌ من أهل نصيبين، فاستمعوا القرآن وأسلموا، وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته، وأن يطبق على قومه أخشبي مكة، وهما جبلاها إن أراد، فقال: لا بل أستأني بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا، ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي.

الإسراء والمعراج

أُسري بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى فوق السماوات بجسده وروحه إلى الله ﷻ فخاطبه، وفرض عليه الصلوات.

دعوته ﷺ للقبائل

أقام ﷺ بمكة ما أقام يدعو القبائل إلى الله تعالى، ويعرض نفسه عليهم في كل موسم أن يؤووه، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلم تستجب له قبيلة، وادخر الله ذلك كرامةً للأنصار.

استجابة أهل المدينة لدعوة النبي ﷺ

فلما أراد الله تعالى إظهار دينه، وإنجاز وعده، ونصر نبيه، وإعلاء كلمته، والانتقام من أعدائه، ساقه إلى الأنصار، لما أراد بهم من الكرامة، فانتهى إلى نفرٍ منهم ستة وقيل ثمانية، عند عقبة مِنى في الموسم، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله، ورجعوا إلى المدينة، فدعوا قومهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكرٌ من رسول الله ﷺ.

فأول مسجد قُرِئ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زريق، ثم قدم مكة في العام القابل اثنا عشر رجلاً من الأنصار، منهم خمسةٌ من الستة الأولين، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء عند العقبة ثم انصرفوا إلى المدينة، فقدم عليه في العام القابل منهم ثلاثةٌ وسبعون رجلاً وامرأتان، وهم أهل العقبة الأخيرة، فبايعوا رسول الله ﷺ على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأنفسهم، فترحل هو وأصحابه إليهم، واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيبًا، وأذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً متسللين.

فقدموا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم، وفشا الإسلام بالمدينة، ثم أذن الله ﷻ لرسوله في الهجرة.

الهجرة إلى المدينة

خرج ﷺ من مكة ومعه أبو بكر الصديق، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي، فدخل غار ثور هو وأبو بكر، فأقاما فيه

ثلاثًا، ثم أخذا على طريق الساحل، فلما انتهوا إلى المدينة وذلك يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وقيل: غير ذلك.

ونزل بقباء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف وقيل: على غيرهم، فأقام عندهم أربعة عشر يومًا وأسس مسجد قباء، ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين، وهم مائة، ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم، ويأخذون بخطام الناقة، فبركت عند مسجده اليوم، وكان مربدًا لسهل وسهيل غلامين من بني النجار، فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري، ثم بني مسجده موضع المربد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن، ثم بني مسكنه، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها، وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة فرجع منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً، فحبس منهم بمكة سبعة، وانتهى بقيتهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم هاجر بقيتهم في السفيلة عام خيبر سنة سبع.

النبي ﷺ في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

هذه الكلمة الجميلة الشجاعة قالها ﷺ وهو في الغار مع صاحبه أبي بكر الصدّيق، وقد أحاط بهما الكفار، فقالها قوية في حزم، صادقة في عزم، صارمة في جزم: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فما دام الله معنا فلم الحزن ولم الخوف ولم القلق، اسكن.. اثبت.. اهدأ.. اطمئن، لأن الله معنا.

لا نُغلب، لا نُهزم، لا نضل، لا نضيع، لا نيأس، لا نقنط، لأن الله معنا، النصر حليفنا، الفرج رفيقنا، الفتح صاحبنا، الفوز غايتنا، الفلاح نهايتنا لأن الله معنا.

من أقوى منا قلبا، من أهدى منا نهجا، من أجلّ من مبدأ، من أحسن منا

سيرة، من أرفع مان قدرا؟! لأن الله معنا.

ما أضعف عدوّنا، ما أذلّ خصمنا، ما أحقر من حاربنا، ما أجبن من قاتلنا، لأن الله معنا.

لن نقصد بشرا، لن نلتجئ الى عبد، لن ندعو إنسانا، لن نخاف مخلوقا، لأن الله معنا.

نحن أقوى عدة وأمضى سلاحا، وأثبت جنانا وأقوم نهجا، لأن الله معنا.

نحن الأكثرون الأكرمون الأعلون الأعزّون المنصورون، لأن الله معنا.

يا أبا بكر اهجر همّك، وأزح غمّك، واطرد حزنك، وأزل يأسك، لأن الله معنا.

يا أبا بكر ارفع رأسك، وهدئ من روعك، وأرح قلبك، لأن الله معنا.

يا أبا بكر أبشر بالفوز، وانتظر النصر، وترقّب الفتح، لأن الله معنا.

غدا سوف تعلو رسالتنا وتظهر دعوتنا وتسمع كلمتنا، لأن الله معنا.

غدا سوف نُسمع أهل الأرض روعة الأذان وكلام الرحمن ونغمة القرآن، لأن الله معنا.

غدا سوف نخرج الإنسانية ونحرر البشرية من عبودية الأوثان، لأن الله معنا.

غزواته ﷺ

غزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين، فالغزوات سبعٌ وعشرون، وقيل: خمسٌ وعشرون، وقيل: غير ذلك.

قاتل منها في تسع: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر،

والفتح، وحنين، والطائف، وقيل: قاتل في بني النضير، والغابة، ووادي القرى من أعمال خيبر.

وأما سراياه وبعوثه فقريبٌ من ستين، والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك، وفي شأن هذه الغزوات أنزل الله أياتٍ وسور: فسورة (الأنفال) سورة بدر، وفي أحد آخر سورة (آل عمران)، وفي قصة الخندق وقريظة وخيبر صدر (سورة الأحزاب)، (وسورة الحشر) في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة (الفتح) وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحًا في سورة (النصر)، وجرح منها ﷺ في غزوةٍ واحدةٍ وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، وكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين، وقاتل بالمنجنيق في غزوة واحدة وهي الطائف، وتحصن في الخندق في واحدة، وهي الأحزاب أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه.

الحرب ضد الإسلام قديمًا وحديثًا

الحرب ضد الإسلام لم تفلح قديمًا ولن تفلح في أي زمان أو مكان.

تعددت طرق وأساليب أعداء الإسلام للنيل من دين الله ومن أساليبهم:

١- السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ويصمونه بالسحر والكذب ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص: ٤]، وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات

ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ [القَلَم: ٥١]، وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعَام: ٥٣]، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكانوا كما قص الله علينا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك في نفس رسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحِجر: ٩٧]، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقالَ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم فقالَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠].

٢- إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة:

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [يُوسُف: ٤٤] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الأنبيَاء: ٥] من عند نفسه ويقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: ١٠٣] وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفُرقان: ٤] أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه. ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفُرقان: ٥].

وأحيانا قالوا: إن له جنًا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان. قال تعالى ردًا عليهم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جرّبتم علىّ كذبًا، وما وجدتم في فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان؟

وأحيانًا قالوا عن النبي ﷺ: إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعانى، ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر. قال تعالى ردًا عليهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها في النبي ﷺ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون في دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم، ثم النبي ﷺ لا يهيم في كل واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول، فأين هو من الشعر والشعراء؟ وأين الشعر والشعراء منه.

هكذا كان يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبي ﷺ والقرآن والإسلام.

ومعظم شبهتهم كانت تدور حول التوحيد، ثم رسالة محمد ﷺ، ثم بعث الأموات ونشرهم وحشرهم يوم القيامة، وقد رد القرآن على كل شبهة من شبهاتهم حول التوحيد، بل زاد عليها زيادات أوضح بها هذه القضية من كل ناحية، وبين عجز آلهتهم عجزًا لا مزيد عليه، ولعل هذا كان مثار غضبهم واستنكارهم الذي أدى إلى ما أدى إليه.

أما شبهاتهم في رسالة النبي ﷺ فإنهم مع اعترافهم بصدق النبي ﷺ وأمانته وغاية صلاحه وتقواه، كانوا يعتقدون أن منصب النبوة والرسالة أجل وأعظم من

أن يعطى لبشر، فالبشر لا يكون رسولًا، والرسول لا يكون بشرًا حسب عقيدتهم. فلما أعلن رسول الله ﷺ عن نبوته، ودعا إلى الإيمان به تحيروا وقالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفُرقان: ٧]، وقالوا: إن محمدًا ﷺ بشر، و﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعَام: ٩١]، فقال تعالى ردًا عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعَام: ٩١]، وكانوا يعرفون ويعترفون بأن موسى بشر. ورد عليهم أيضًا بأن كل قوم قالوا لرسلهم إنكارًا على رسالتهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فـ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]. فالأنبياء والرسل لا يكونون إلا بشرًا، ولا منافاة بين البشرية والرسالة.

وحيث إنهم كانوا يعترفون بأن إبراهيم وإسماعيل وموسى عليهم السلام كانوا رسلًا وكانوا بشرًا، فإنهم لم يجدوا مجالًا للإصرار على شبهتهم هذه، فقالوا: ألم يجد الله لحمل رسالته إلا هذا اليتيم المسكين، ما كان الله ليترك كبار أهل مكة والطائف ويتخذ هذا المسكين رسولًا ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزّخرُف: ٣١]، قال تعالى ردًا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزّخرُف: ٣٢]، يعنى أن الوحى والرسالة رحمة من الله و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعَام: ١٢٤].

وانتقلوا بعد ذلك إلى شبهة أخرى، قالوا: إن رسل ملوك الدنيا يمشون في موكب من الخدم والحشم، ويتمتعون بالأبهة والجلال، ويوفر لهم كل أسباب الحياة، فما بال محمد يدفع في الأسواق للقمة عيش وهو يدعى أنه رسول الله ؟ ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، ورد على شبهتهم هذه بأن محمدًا

رسول، يعنى أن مهمته هو إبلاغ رسالة الله إلى كل صغير وكبير، وضعيف وقوى، وشريف ووضيع، وحر وعبد، فلو لبث في الأبهة والجلال والخدم والحشم والحرس والمواكبين مثل رسل الملوك، لم يكن يصل إليه ضعفاء الناس وصغارهم حتى يستفيدوا به، وهم جمهور البشر، وإذن فاتت مصلحة الرسالة، ولم تعد لها فائدة تذكر.

أما إنكارهم البعث بعد الموت فلم يكن عندهم في ذلك إلا التعجب والاستغراب والاستبعاد العقلي، فكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكانوا يقولون: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[ق: ٣] وكانوا يقولون على سبيل الاستغراب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾.

وقال قائلهم:

أموْتٌ ثم بعْثٌ ثم حشْرٌ حدِيثُ خُرافة يا أم عمرو

وقد رد عليهم بتبصيرهم ما يجرى في الدنيا، فالظالم يموت دون أن يلقى جزاء ظلمه، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه، والفاجر المسيء يموت قبل أن يعاقب على سوء عمله، فإن لم يكن بعث ولا حياة ولا جزاء بعد الموت لاستوى الفريقان، بل لكان الظالم والفاجر أسعد من المظلوم والصالح، وهذا غير معقول إطلاقا. ولا يتصور من الله أن يبني نظام خلقه على مثل هذا الفساد. قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وأما الاستبعاد العقلي فقال تعالى ردًا عليه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النَّازعَات: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقِعَة: ٦٢]، وبين ما هو معروف عقلًا وعرفًا، وهو أن الإعادة ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الرُّوم: ٢٧]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٤]، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ﴾ [ق: ١٥].

وهكذا رد على كل ما أثاروا من الشبهات ردًا مفحمًا يقنع كل ذي عقل ولب، ولكنهم كانوا مشاغبين مستكبرين يريدون عُلوا في الأرض وفرض رأيهم على الخلق، فبقوا في طغيانهم يعمهون.

٣- الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين:

كان المشركون بجنب إثارة هذه الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي ﷺ يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلي ويتلو القرآن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٢٦] حتى إن النبي ﷺ لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة.

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول: أنا و الله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني.

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قيْنةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقولَ: أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: ٦] .

صور من الأذى الذي لحق أصحاب النبي ﷺ

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا في إحباط الدعوة الإسلامية استشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام بتعذيب المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان.

وكان من الطبيعي أن يهرول الأذناب والأوباش خلف ساداتهم وكبرائهم، ويتحركوا حسب مرضاتهم وأهوائهم، فجروا على المسلمين -ولاسيما الضعفاء منهم- ويلات تقشعر منها الجلود، وأخذوهم بنقمات تتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته.

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيته وكان من أنعم الناس عيشًا فتخشّف جلده تخشف الحية.

وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول.

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضربه بالعصا، و يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحد،أحد، ويقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه.

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون -وعلى رأسهم أبو جهل- يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها. ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال: (صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية -أم عمار- في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة. وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول في اللات والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبي ﷺ. فأنزل الله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: ١٠٦] الآية.

وكان أبو فُكيْهة -واسمة أفلح- مولى لبني عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدادًا، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره.

وكانت زِنِّيرةُ أمةً رومية قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها: أصابتك اللات والعزى، فقالت: لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش: هذا بعض سحر محمد.

وأسلمت أم عُبيْس، جارية لبني زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ﷺ، ومن المستهزئين به.

وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها -وهو يومئذ على الشرك- فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول: كذلك يفعل بك ربك.

وممن أسلمن وعذبن من الجوارى: النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار.

وممن عذب من العبيد: عامر بن فُهيْرة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول.

واشترى أبوبكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فأعتقهم جميعًا. وقد عاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة وقال: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك. قال: إني أريد وجه الله. فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه. قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وأوذى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا. فقد أخذه نوفل بن خويلد العدوى، وأخذ معه طلحة بن عبيد الله فشدهما في حبل واحد، ليمنعهما عن الصلاة وعن الدين فلم يجيباه، فلم يروعاه إلا وهما مطلقان يصليان؛ ولذلك سميا بالقرينين، وقيل: إنما فعل ذلك عثمان بن عبيد الله أخو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلًا ميسورًا بالنسبة لضعفاء المسلمين، ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب ويغرون الأوباش، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعبًا جدًا؛ إذ كانوا في عز ومنعة من قومهم، ولذلك قلما كان يجترىء عليهم إلا أشراف قومهم، مع شيء كبير من الحيطة والحذر.

صور من الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ

واخترقت قريش ما كانت تتعاظمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرستها وكبريائها أن تصبر طويلًا، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشوية والتلبيس والتشويش وغير ذلك. وكان من الطبيعى أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رؤوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا.

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما.

ولما مات عبد الله -الابن الثاني لرسول الله ﷺ- استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشرهم بأن محمدًا صار أبتر.

وكان أبو لهب يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربى ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه.

وكانت امرأة أبي لهب -أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان- لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبي ﷺ؛ ولذلك

وصفها القرآن بجمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فِهْرٌ [أي بمقدار ملء الكف] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة. ثم قالت:

مُذمّما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «**ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني**».

وروى أبو بكر البزار هذه القصة، وفيها: أنها لما وقفت على أبي بكر قالت: أبا بكر، هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمُصدّق.

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدى بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلى -وكانوا جيرانه- لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: (يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟) ثم يلقيه في الطريق.

وازداد عقبة بن أبي مُعيْط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزُور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [وهو عقبة بن أبي معيط] فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعضهم [أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا] ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: [اللهم عليك بقريش] ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: (اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط) -وعد السابع فلم نحفظه- فوالذي نفسى بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القلِيب، قليب بدر.

وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهُمَزة: ١] قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سرًا، ويؤذيهم.

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًا أنبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل، وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميمًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ.

وكان الأخنس بن شرِيق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ

﴿ ١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ ﴾.

وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ ﴾ [القِيَامَة: ٣١]، وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى في الحرم، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا، وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددنى؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى ناديًا. فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ ﴾. وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه وهزه، وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ٣٥ ﴾ فقال عدو الله: أتوعدنى يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها.

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**».

هذه صورة مصغرة جدًا لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من الظلم والخسف والجور على أيدى طغاة المشركين، الذين كانوا يزعمون أنهم أهل الله وسكان حرمه.

وصف خلقته ﷺ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، ولا بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط ولا بالسبط بعثه الله تعالى على رأس أربعين سنة، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء» رواه البخاري ومسلم.

«كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن» المراد أنه لم يكن بعيدًا من التوسط.

«ولا بالقصير»: أي المتردد الداخل بعضه في بعض، والمعنى أنه كان متوسطًا بين الطول والقصر لا زائد الطول ولا القصر وفي نفي أصل القصر ونفي الطول البائن لا أصل الطول، إشعار بأنه ﷺ كان مربوعًا مائلاً إلى الطول، وأنه كان إلى الطول أقرب، كما رواه البيهقي، ولا ينافيه وصفه الآتي بأنه ربعة لأنها أمر نسبي، ويوافقه خبر البراء: كان ربعة وهو إلى الطول أقرب.

«ولا بالأبيض الأمهق»: أي الشديد البياض الخالي عن الحمرة والنور كالجص وهو كريه المنظر، وربما توهمه الناظر أبرص بل كان بياضه نيرًا مشربًا بحمرة كما في روايات أخر.

«ولا بالآدم» الأدمة شدة السمرة وهي منزلة بين البياض والسواد، قال العسقلاني: تبين من مجموع الروايات أن المراد بالبياض المنفي ما لا يخالطه الحمرة، والمراد بالسمرة الحمرة التي يخالطها البياض.

«ولا بالجعد»: بفتح الجيم وسكون العين من الجعودة وهي في الشعر أن لا يتكسر تكسرًا تامًا ولا يسترسل.

«القطط»: بفتحتين وبكسر الثاني وهو شدة الجعودة.

«ولا بالسبط»: بفتح المهملة، وكسر الموحدة وتسكن وتفتح، والسبوطة في الشعر ضد الجعودة وهو الامتداد الذي ليس فيه تعقد ولا نتوء أصلاً، والمراد أن شعره ﷺ متوسطًا بين الجعودة والسبوطة.

«بعثه الله تعالى» أي أرسله الحق إلى الخلق للنبوة والرسالة وتبليغ الأحكام والحكم للامة، قيل ولد ﷺ يوم الإثنين وأنزل عليه الوحي يوم الإثنين، وخرج من مكة مهاجرًا يوم الإثنين، و قدم المدينة يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين.

«على رأس أربعين سنة»: في رواية البخاري: أنزل عليه -أي الوحي- وهو ابن أربعين سنة.

قال شراح الحديث: المراد بالرأس الطرف الأخير منه لما عليه الجمهور من أهل السير والتواريخ، من أنه بعث بعد استكمال أربعين سنة، قال الطيبي: الرأس هنا مجاز عن آخر السنة، كقولهم رأس الآية أي آخرها، وتسمية آخر السنة رأسها باعتبار أنه مبدأ مثله من عقد آخر انته، وأما لفظ الأربعين فتارة يراد به مجموع السنين من أول الولادة إلى ساتكمال أربعين سنة، وتارة يراد به السنة التي تنضم إلى تسعة وثلاثين والاستعمالان شائعان، فالأول كما يقال: عمْرُ فلان أربعون، والثاني: كقولهم: الحديث الأربعون، وإيراد التمييز، وهو قوله: سنة يؤيد المعنى الأول، قال الحافظ العسقلاني: المشهور عند الجمهور أنه ولد في شهر ربيع الأول وبعث في شهر رمضان. لكن قال المسعودي وابن عبد البر: إنه بعث في شهر ربيع الأول.

«فأقام» أي بعد البعثة «بمكة عشر سنين» بسكون الشين أي رسولاً وثلاث عشرة سنة نبيًا ورسولاً لأن العلماء متفقون على أنه ﷺ أقام بمكة بعد النبوة وقبل الهجرة ثلاث عشرة سنة، فقوله: أقام بمكة عشر سنين محتاج إلى تأويل وهو ما

ذكرناه، ويحتمل أن الراوي اقتصر على العقد وترك الكسر ولا خلاف في قوله: «وبالمدينة عشر سنين» لكن يشكل قوله: «فتوفاه الله تعالى» أي قبض روحه، «على رأس ستين سنة»: لأنه يقتضي أن يكون سِنه ستين، والمرجح أنه ثلاث وستون، وقيل: خمس وستون، وجمع بأن من روى الأخير عد سنتي المولد والوفاة، ومن روى ثلاثًا لم يعدهما، ومن روى الستين لم يعد الكسر، واعلم أن ابتداء التاريخ الإسلامي من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة وقد قدم بها يوم الإثنين ضحى لثنتي عشرة خلت من ربيع الأول.

«وليس في رأسه ولحيته» بكسر اللام «عشرون شعرة» بسكون العين فقط، وقد يفتح، وأما الشعر فبالفتح ويسكن.

«بيضاء»: صفة لشعرة، وأخرج ابن سعد بإسناد صحيح عن ثابت، عن أنس قال: ما كان في رأس رسول الله ﷺ ولحيته إلا سبع عشرة، أو ثمان عشرة شعرة بيضاء، وأما ما جاء من نفي الشيب في رواية، فالمراد به نفي كثرته لا أصله.

ملابسه ﷺ

كانت له ﷺ عمامةٌ تسمى السحاب، وكان يلبسُها، ويلبس تحتها القلنسوة، وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة، ويلبس العمامة بغير قلنسوة، وكان إذا اعتم أرخى عمامته بين كتفيه.

ولبس القميص، وكان أحب الثياب إليه، وكان كمه إلى الرسغ، ولبس الجبه والفروج وهو شبه القباء.

وكان قميصه من قطن، وكان قصير الطول، قصير الكمين، وكان أحب الألوان إليه البياض.

ولبس خاتمًا من ذهب ثم رمى به، ونهى عن التختم بالذهب ثم اتخذ خاتمًا من فضة.

وكان غالب ما يلبس هو وأصحابه ما نُسِج من القطن، وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان، وكان إذا لبس قميصه بدأ بميامنه.

طعامه وشرابه

كان ﷺ لا يرد موجودًا، ولا يتكلف مفقودًا، فما قُرِّب إليه شيءٌ من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه، فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

هديه ﷺ في نومه

كان ينام على الفراش تارة وعلى النطع تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة.

وكان إذا أوى إلى فراشه للنوم قال: «**باسمك اللهم أحيا وأموت**» [رواه البخاري ومسلم]، وكان يجمع كفيه ثم ينفث فيهما وكان يقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وكان ينام على شقه الأيمن، ويضع يده اليمنى تحت خده الأيمن.

في هديه ﷺ في الركوب

ركب الخيل والإبل والبغال والحمير وركب الفرس، وكان يركب وحده، وهو الأكثر، وربما أردف خلفه على البعير، وربما أردف خلفه وأركب أمامه، وكان أكثر مراكبه الخيل والإبل.

في هديه ﷺ بيعه وشرائه

باع رسول الله ﷺ واشترى، وكان أحسن الناس معاملة، وكان إذا استسلف قضى خيرًا منه، وكان إذا استسلف من رجلٍ سلفًا قضاه إياه ودعا له.

في هديه ﷺ في كلامه وسكوته وضحكه وبكائه

كان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقًا حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح.

وكان إذا تكلم، تكلم بكلامٍ مفصلٍ مبينٍ يعده العاد، ليس بهذ مسرعٍ لا يُحفظ، ولا منقطعٍ تخلله السكتات بين أفراد الكلام.

وكان يضحك مما يُضحك منه، وهو مما يُتعجب من مثله ويُستغرب وقوعه ويُستندر، ولم يكن ضحكه بقهقهة.

وأما بكاؤه ﷺ فلم يكن بشهيقٍ ورفع صوتٍ، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويُسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارةً رحمةً للميت، وتارةً خوفًا على أمته وشفقةً عليها، وتارةً من خشية الله، وتارةً عند سماع القرآن وهو بكاء اشتياقٍ ومحبةٍ وإجلالٍ، مصاحبٌ للخوف والخشية.

هديه ﷺ في خُطبه

خطب ﷺ على الأرض وعلى المنبر، وعلى البعير، وعلى الناقة، وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه.

وكان لا يخطب خطبةً إلا افتتحها بحمد الله ﷻ، وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجنة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه، فعلى هذا كان مدار خطبه.

وكان يخطب في كل وقتٍ بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم.

هديه ﷺ في الوضوء

كان ﷺ يتوضأ لكل صلاةٍ في غالب أحيانه وربما صلى الصلوات بوضوءٍ واحد، وكان يتوضأ بالمد تارة وبثلثيه تارة، وبأزيد منه تارة.

هديه ﷺ في صلاته

كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: الله أكبر، وكان يرفع يديه معها ممدودة الأصابع، مستقبلاً بها القبلة إلى فروع أذنيه، وروي إلى منكبيه.

ثم يضع اليمنى على ظهر اليسر، وكان يستفتح الصلاة بأدعيةٍ مأثورة، صح عنه أكثر من دعاء في هذا الموضع، وكان يقول بعد ذلك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم يقرأ الفاتحة.

وكانت قراءته مدًا، يقف عند كل آية، ويمد بها صوته.

فإذا فرغ من قراءة الفاتحة قال: آمين، فإن كان يجهر بالقراءة رفع بها صوته وقالها من خلفه.

فإذا فرغ من الفاتحة أخذ في سورةٍ غيرها، وكان يطيلها تارة، ويخففها لعارض من سفرٍ أو غيره، ويتوسط فيها غالبًا.

وكان ﷺ يطيل الركعة الأولى على الثانية من صلاة الصبح، ومن كل صلاة، وكان يطيل صلاة الصبح أكثر من سائر الصلوات، وكان ﷺ إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يتراد إليه نفسه، ثم رفع يديه كما تقدم وكبر راكعًا ووضع كفيه على ركبتيه كالقابض عليهما ووتر يديه فنحاهما عن جنبيه، وبسط ظهره ومده واعتدل، ولم ينصب رأسه ولم يخفضه بل يجعله حيال ظهره معادلاً له، وكان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم».

وكان ركوعه المعتاد مقدار عشر تسبيحات وسجوده كذلك.

ثم كان يرفع رأسه بعد ذلك قائلاً: سمع الله لمن حمده ويرفع يديه كما تقدم.

وكان دائمًا يقيم صلبه إذا رفع من الركوع، وبين السجدتين، وكان إذا استوى قائمًا قال: «ربنا ولك الحمد»، وكان من هديه أنه يطيل هذا الركن بقدر الركوع والسجود، ثم كان يكبر ويخر ساجدًا، ولا يرفع يديه، وكان ﷺ إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض، ونحى يديه عن جنبيه وجافى بهما، وكان يضع يديه حذو منكبيه وأذنيه.

وكان يعتدل في سجوده ويستقبل أطراف أصابع رجليه القبلة.

وكان يبسط كفيه وأصابعه ولا يفرج بينهما ولا يقبضها، وكان يقول في سجوده «سبحان ربي الأعلى».

ثم كان ﷺ يرفع رأسه مكبرًا غير رافعٍ يديه، ويرفع من السجود رأسه قبل يديه، ثم يجلس مفترشًا، يفرش رجله اليسرى ويجلس عليها وينصب اليمنى.

وكان يضع يديه على فخذيه ويجعل مرفقه على فخذه، وطرف يديه على ركبتيه، ثم كان يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني**» **وتارة يقول**: «**رب اغفر لي رب اغفر لي**».

وكان هديه ﷺ إطالة هذا الركن بقدر السجود، ثم كان ينهض ﷺ، وكان إذا نهض افتتح القراءة ولم يسكت كما كان يسكت عند افتتاح الصلاة. وكان النبي ﷺ يصلي الثانية كالأولى سواء، إلا في أربعة أشياء: السكوت أو الاستفتاح وتكبيرة الإحرام، وتطويلها كالأولى، فإنه كان ﷺ لا يستفتح ولا يسكت، ولا يكبر للإحرام فيها، أو يقصرها عن الأولى.

فإذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى، وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بإصبعه السبابة ويرمي ببصره إليها.

ويبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى، ثم كان ﷺ يتشهد في هذه الجلسة ويعلم أصحابه أن يقولوا: «**التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**» [البخاري ومسلم].

ثم كان ينهض مكبرًا على صدور قدميه وعلى ركبتيه، ثم كان يقرأ في الركعتين الأخيرتين الفاتحة وحدها.

وكان ﷺ إذا جلس في التشهد الأخير وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وضم أصابعه الثلاث، ونصب السبابة، وكان يبسط ذراعه على فخذه ولا يجافيهما فيكون حد مرفقه عند آخر فخذه، وأما اليسرى فممدودة الأصابع على الفخذ اليسرى.

وكان يستقبل بأصابعه القبلة في رفع يديه في ركوعه، وفي سجوده، وفي تشهده، ويستقبل بأصابع رجليه القبلة في سجوده، وكان يقول في كل ركعتين التحيات، ثم كان يسلم عن يمينه السلام عليكم ورحمة الله وعن يساره كذلك.

هديه ﷺ في الصدقة الزكاة

هديه ﷺ في الزكاة أكمل هدي في وقتها، وقدرها، ونصابها، ومن تجب عليه، ومصرفها، وقد راعى فيها مصلحة أرباب الأموال، ومصلحة المساكين، وجعلها الله ﷻ طهرةً للمال ولصاحبه، وقيد النعمة بها على الأغنياء، فما زالت النعمة بالمال على من أدى زكاته، بل يحفظه عليه وينميه له، ويدفع عنه بها الآفات، ويجعلها سورًا عليه، وحصنًا له وحارسًا له.

ثم إنه جعلها في أربعة أصنافٍ من المال: وهي أكثر الأموال دورانًا بين الخلق، وحاجتهم إليه ضرورية.

أحدها: الزرع، والثمار.

الثاني: بهيمة الأنعام: الإبل، والبقر، والغنم.

الثالث: الجوهران اللذان بهما قوام العالم، وهما الذهب والفضة.

الرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها.

ثم إنه أوجبها مرة كل عام، وجعل حول الزروع الثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون إذ وجوبها كل شهرٍ أو كل جمعةٍ يضر بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة مما يضر بالمساكين، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عامٍ مرة.

ثم إنه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها، وسهولة ذلك، ومشقته.

والرب سبحانه تولى قسم الصدقة بنفسه، وجزأها ثمانية أجزاء، يجمعها صنفان من الناس:

أحدهما: من يأخذ لحاجة، فيأخذ بحسب شدة الحاجة، وضعفها وكثرتها، وقلتها، وهم الفقراء والمساكين، وفي الرقاب، وابن السبيل.

والثاني: من يأخذ لمنفعته وهم العاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والغارمون لإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله، فإن لم يكن الآخذ محتاجًا، ولا فيه منفعة للمسلمين فلا سهم له في الزكاة.

وكان من هديه ﷺ إذا علم من الرجل أنه من أهل الزكاة أعطاه، وإن سأله أحدٌ من أهل الزكاة ولم يعرف حاله أعطاه بعد أن يخبره أنه لا حظ فيها لغنيٍ ولا لقويٍ مكتسب.

هديه ﷺ في الصيام

لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها، وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن كل عضوٍ منها وكل قوةٍ من جماحه وتُلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار،

وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، وهو سرٌ بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمرٌ لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثيرٌ عجيبٌ في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودةً بالعقول السليمة والفطر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمةً بهم، وإحسانًا إليهم، وحميةً لهم وجُنة.

وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهلة على النفوس.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها؛ تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة،

وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج، وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتُوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات، وفُرض أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نُقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يُطيقا الصيام، فإنهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكينًا، ورخص للمريض والمسافر أن يُفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما، زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم، فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان

مع الصحة فجُبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رتبٌ ثلاث:

إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية: تحتمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يطعم حرم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة، وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة.

وكان من هديه ﷺ في شهر رمضان، الإكثار من أنواع العبادات، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يُدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان يُكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف، وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور. وكان من هديه ﷺ أن لا يدخل في صوم رمضان إلا برؤية محققة أو بشهادة شاهدٍ واحد.

وكان ﷺ يُفطر قبل أن يصلي، وكان فِطره على رطباتٍ إن وجدها فإن لم يجدها فعلى تمراتٍ، فإن لم يجد فعلى حسواتٍ من ماء.

وكان ﷺ في غير رمضان يصوم حتى يقال: لا يُفطر، ويُفطر حتى يقال: لا يصوم، وما استكمل صيام شهر غير رمضان، وما كان يصوم في شهرٍ أكثر مما يصوم في شعبان.

وكان يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس، ولم يكن من هديه ﷺ سرد الصوم وصيام الدهر.

هديه ﷺ في حجه وعمرته

اعتمر ﷺ بعد الهجرة أربع عُمر، كلهن في ذي القعدة.

الأولى: عمرة الحديبية، وهي أولاهن سنة ست، فصده المشركون عن البيت، فنحر البُدن حيث صُدّ بالحديبية وحلق هو وأصحابه رؤوسهم، وحلوا من إحرامهم، ورجع من عامه إلى المدينة.

الثانية: عمرة القضية في العام المقبل، دخل مكة فأقام بها ثلاثًا، ثم خرج بعد إكمال عمرته، واختُلف؛ هل كانت قضاءٌ للعمرة التي صُد عنها في العام الماضي، أم عمرةٌ مستأنفة؟ على قولين للعلماء.

الثالثة: عمرته التي قرنها مع حجته، فإنه كان قارنًا لبضعة عشر دليلاً.

الرابعة: عمرته من الجعرانه، لما خرج إلى حنين، ثم رجع إلى مكة، فاعتمر من الجعرانة داخلاً إليها.

ولا خلاف أن عُمره لم تزد على أربع، ولا خلاف أنه لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجةٍ واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر.

ولما نزل فرضُ الحج، بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير.

ولما عزم رسول الله ﷺ على الحج أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه وسمع ذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله مد البصر، وخرج من المدينة نهارًا بعد الظهر لستٍ بقين من ذي القعدة بعد أن صلى الظهر أربعًا، وخطبهم قبل ذلك خطبةً علمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه.

فصلى الظهر بالمدينة بالمسجد أربعًا، ثم ترجّل وأدهن، ولبس إزاره ورداءه، وخرج بين الظهر والعصر، فنزل بذي الحليفة، فصلى بها العصر ركعتين، ثم بات بها، وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر، فصلى فيها خمس صلوات، فلما أراد الإحرام اغتسل، وأهل في مصلاه، ثم ركب على ناقته وأهل أيضًا، ثم أهل لما استقلت به على البيداء، وعند وصوله مكة نزل بذي طُوى وهي المعروفة بآبار الزاهر، فبات بها ليلة الأحد لأربعٍ خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة فدخلها نهارًا من أعلاها من الثنية العليا التي تُشرف على الحجون، وكان في العمرة يدخل من أسفلها، وفي الحج دخل من أعلاها وخرج من أسفلها، ثم سار حتى دخل المسجد وقت الضحى، فلما دخل المسجد عمد إلى البيت ولم يصل تحية المسجد؛ فإن تحية المسجد الطواف، فلما حاذى الحجر الأسود استلمه، ولم يزاحم عليه بل استقبله واستلمه، ثم أخذ عن يمينه، وجعل البيت عن يساره، ورمل في هذا الطواف في الثلاثة أشواط الأول، وكان يسرع في مشيه، ويقارب بين خطاه، واضطبع بردائه فجعل صارفيه على أحد كتفيه وأبدى كتفه الأخرى ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود أشار إليه أو استلمه بمحجنه، وقبل المحجن والمحجن عصا محنية الرأس، وثبت عنه أنه استلم الركن اليماني، ولم يثبت عنه أنه قبله فلما فرغ من طوافه، جاء إلى خلف المقام فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥] فصلى ركعتين، والمقام بينه وبين البيت، قرأ فيهما بـ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الكافِرون: ١] و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] فلما فرغ من صلاته أقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلما قرب منه قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٥٨] أبدأ بما بدأ الله به.

ثم رقى إلى الصفا حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير،**

لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» ثم دعا بين ذلك وقال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل إلى المروة يمشي، فلما انصبت قدماه في بطن الوادي، سعى حتى إذا جاوز الوادي وأصعد مشى، وهذا الذي صح عنه، وذلك اليوم قبل الميلين الأخضرين في أول المسعى وآخره.

وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة أرقى عليها واستقبل البيت، وكبر الله ووحده، وفعل كما فعل على الصفا.

فلما كان يوم الخميس ضحى، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى، فلما وصل إلى منى نزل بها، وصلى بها الظهر والعصر، وبات بها، وكان ليلة الجمعة، فلما طلعت الشمس سار منها إلى عرفة.

وكان من أصحابه الملبي ومنهم المكبر، وهو يسمع ذلك ولا ينكر على هؤلاء ولا على هؤلاء.

فوجد القبة قد ضربت له بنمرة بأمره، وهي قرية شرقي عرفات، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس، أمر بناقته القصواء فرُحلت، ثم سار حتى أتى بطن الوادي من أرض عرنة، فخطب الناس وهو على راحلته خطبةً عظيمةً قرر فيها قواعد الإسلام وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيرًا، وذكر الحق الذي لهن والذي عليهن، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف.

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون، فقالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع أصبعه إلى

السماء، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم.

وموضع خطبته ﷺ لم يكن من الموقف، فإنه خطب بعرنة، ووقف بعرفة، وخطب خطبةً واحدة فلما أتمها أمر بلالاً فأذن ثم أقام الصلاة، فصلى الظهر ركعتين أسر فيهما بالقراءة، وكان يوم الجمعة، فدل على أن المسافر لا يصلي جمعة، ثم أقام فصلى العصر ركعتين، فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف، فوقف في ذيل الجبل عند الصخرات، واستقبل القبلة، وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعًا يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، وأخبرهم أن خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وفي عرفة أُنزل عليه قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائدة: ٣].

فلما غربت الشمس، واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصفرة، أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه وأفاض بالسكينة، وكان يلبي في مسيره ذلك لم يقطع التلبية، فلما كان في أثناء الطريق نزل وتوضأ وضوءًا خفيفًا.

ثم سار حتى أتى المزدلفة فتوضأ وضوء الصلاة، ثم أمر بالأذان فأذن المؤذن ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال، وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم أمر فأقيمت الصلاة، ثم صلى عشاء الآخرة بإقامةٍ بلا أذان، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم نام حتى أصبح وأذن في تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر، وكان ذلك عند غيبوبة القمر، وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس.

فلما طلع الفجر، صلاها في أول الوقت بأذان وإقامة يوم النحر، وهو يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر، وهو يوم الأذان ببراءة الله ورسوله من كل مشرك.

ثم ركب حتى أتى موقفه عند المشعر الحرام فاستقبل القبلة وأخذ في الدعاء

والتضرع والتكبير والتهليل والذكر حتى أصفر جدًا، وذلك قبل طلوع الشمس، وقف ﷺ في موقفه، وأعلم الناس أن مزدلفة كلها موقف، ثم سار من مزدلفة مردفًا للفضل بن عباس وهو يلبي في مسيره.

وفي طريقه ذلك أمر ابن عباس أن يلقط له حصى الجمار سبع حصيات، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**بأمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**».

فلما أتى بطن مُحسِّر، حرك ناقته وأسرع السير، وهذه كانت عادته في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل ما قص الله علينا، ولذلك سُمي ذلك الوادي وادي مُحسِّر؛ لأن الفيل حسر فيه، أي: أُعيي وانقطع عن الذهاب إلى مكة، وكذلك فعل في سلوكه الحجر ديار ثمود، فإنه تقنّع بثوبه، وأسرع السير.

ومحسر: برزخٌ بين مِنى وبين مزدلفة، لا من هذه ولا من هذه.

وعرنة: برزخ بين عرفة والمشعر الحرام، وسلك ﷺ الطريق الوسطى بين الطريقين، وهي التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فوقف في أسفل الوادي، وجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة وهو على راحلته، فرماها راكبًا بعد طلوع الشمس، واحدةٌ بعد واحدة، يُكبِّر مع كل حصاة، وحينئذ قطع التلبية، وكان في مسيره ذلك يلبي حتى شرع في الرمي، ورمي الجمرات وبلالٌ وأسامة بن زيدٍ معه.

ثم رجع إلى منى فخطب الناس خطبةً بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمرهم بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وعلمهم مناسكهم، وأنزل المهاجرين والأنصار منازلهم، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفارًا يضرب

بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه.

وقال في خطبته تلك: «**اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم**»، وودع حينئذ الناس، فقالوا: حجة الوداع.

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده.

ونحر ﷺ بمنحره بمنى، وأعلمهم أن منى كلها منحر، وأن ضجاج مكة طريقٌ ومنحر، فلما أكمل رسول الله ﷺ نحره، استدعى الحلاق فحلق رأسه، ودعا للمحلقين بالمغفرة ثلاثًا، وللمقصرين مرة، وحلق كثيرٌ من الصحابة بل أكثرهم، وقصر بعضهم. ثم أفاض إلى مكة قبل الظهر راكبًا، فطاف طواف الإفاضة، وهو طواف الزيارة، وهو طواف الصدر، ولم يطف غيره، ولم يسع معه وهذا هو الصواب، ثم أتى زمزم بعد أن قضى طوافه، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف، فرماها بسبع حصياتٍ واحدةً بعد واحدة، ويقول مع كل حصاة: «**الله أكبر**» ثم تقدم على الجمرة أمامها حتى أسهل، فقام مستقبل القبلة، ثم رفع يديه ودعا دعاءً طويلاً بقدر سورة البقرة، ثم أتى إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك، ثم انحدر ذات اليسار مما يلي الوادي، فوقف مستقبل القبلة رافعًا يديه يدعو قريبًا من وقوفه الأول، ثم أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، واستعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات كذلك، فلما أكمل الرمي رجع من فوره ولم يقف عندها.

وقد تضمنت حجته ﷺ ست وقفاتٍ للدعاء: الموقف الأول: على الصفا، والثاني: على المروة، والثالث: بعرفة، والرابع: بمزدلفة، والخامس: عند الجمرة

الأولى والسادس: عند الجمرة الثانية.

ولم يتعجل ﷺ في يومين، بل تأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المُحصّب، وهو الأبطح.

فوجد أبا رافع قد ضرب له فيه قبةً هناك، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ورقد رقدةً ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلاً سحرًا.

ثم ارتحل ﷺ راجعًا إلى المدينة، فلما أتي ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**».

البيت النبوي

١- كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه، وهي في الأربعين، وهي أول من تزوجه من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعش منهم أحد، وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها، أبوالعاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى، وأما فاطمة فتزوجها على بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان يمتاز عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاثة عشرة امرأه، منهن تسع مات

عنهن، واثنتان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بنت خريمة، واثنتان لم يدخل بهما، وها هي أسماؤهن وشيء عنهن.

٢- سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بنحو شهر، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، فمات عنها. توفيت بالمدينة في شوال سنة ٥٤هـ.

٣- عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بسنتين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبني بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكراً ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق، فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. توفيت في ١٧رمضان سنة ٥٧هـ أو ٥٨ هـ ودفنت بالبقيع.

٤- حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأيمت من زوجها خنيس بن خذافة السهمي بين بدر وأحد، فلما حلت تزوجها رسول الله ﷺ في شعبان سنة ٣هـ توفيت في شعبان سنة ٤٥هـ بالمدينة، ولها ستون سنة، ودفنت بالبقيع.

٥- زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين، لرحمتها أياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤ هـ. ماتت بعد الزواج بنحو ثلاثة أشهر في ربيع الآخر سنة ٤هـ، فصلى عليها النبي ﷺ، ودفنت بالبقيع.

٦- أم سلمة هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، وله منها أولاد، فمات عنها في جمادى الآخر سنة ٤ هـ، فتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال السنة نفسها، وكانت من افقه النساء وأعقلهن. توفيت سنة ٥٩هـ، وقيل: ٦٢هـ ودفنت بالبقيع، ولها ٨٤ سنة.

٧- زينب بنت جحش بن رباب من بنى أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ، كانت تحت زيد بن حارثة -الذي كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ- فطلقها زيد، فلما انقضت العدة أنزل الله تعالى يقول لرسوله ﷺ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني - وسنأتي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة. وقيل: سنة ٤هـ، وكانت أعبد النساء وأعظمهن صدقة، توفيت سنة ٢٠هـ ولها ٥٣ سنة. وكانت أول أمهات المؤمنين وفاة بعد رسول الله ﷺ، صلى عليها عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع.

٨- جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بنى المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها في شعبان سنة ٦ هـ. وقيل: سنة ٥هـ، فأعتق المسلمون مائة أهل بيت من بني المصطلق، وقالوا أصهار رسول الله ﷺ، فكانت أعظم النساء بركة على قومها. توفيت في ربيع الأول سنة ٥٦هـ، وقيل: ٥٥ هـ. ولها ٦٥ سنة.

٩- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، فولدت له حبيبة فكنيت بها، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتد عبيد الله وتنصر، وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميه الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧ هـ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وأصدقها من عنده أربعمائة دينار، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة. فابتنى بها النبي ﷺ بعد رجوعه من خيبر. توفيت سنة ٤٢ هـ، أو ٤٤هـ، أو ٥٠هـ.

١٠- صفية بنت حيي بن أخطب سيد بن النضير من بنى إسرائيل، كانت من سبي خيبر، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، وعرض عليها الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ، وابتنى بها بسد الصهباء على بعد ١٢ ميلا

من خيبر في طريقه إلى المدينة. توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل: ٥٢هـ، وقيل ٣٦ هـ ودفنت بالبقيع.

١١- ميمونة بنت الحارث، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧ هـ، في عمرة القضاء، بعد أن حل منها على الصحيح.

وابتنى بها بسرف على بعد ٩ أميال من مكة، وقد توفيت بسرف سنة ٦١هـ، وقيل: ٦٣، وقيل: ٣٨هـ ودفنت هناك، ولا يزال موضع قبرها معروفا.

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوج بهن الرسول ﷺ، وبنى بهن وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - في حياته، وتوفي هو عن التسع البواقي.

وأما الاثنتان اللتان لم يبن بهما، فواحدة من بنى كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية، وهناك خلافات لاحاجة إلى بسطها.

وأما السراري فالمعروف أنه تسرى باثنتين إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذي توفي صغيرا بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠ هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م.

والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم. وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش.

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيداً أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عاماً من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرا على وجة واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغته في نفسه قوة عارمة من الشبق، لا يصبر معها إلا بمثل

هذا العدد الكثير من النساء؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجل وأعظم من الغرض الذي يحققه عامة الزواج.

فاتجاه الرسول ﷺ وصلى إلى مصاهرة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزوجيه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب، وتزويجه ابنتيه رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان- يشير إلى أنه يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذي عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به، وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة، فقد كان الصهر عندهم بابا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سبة وعاراً على أنفسهم، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عداء القبائل للإسلام، ويطفئ حدة بغضائها، كانت أم سلمة من بنى مخزوم -حي أبي جهل وخالد بن الوليد- فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعا راغباً، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة، وكذلك لا نرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ ولا يخفي ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس.

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأمورا بتزكية وتثقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئًا من آداب الثقافة والحضارة والتقيد بلوازم المدينة، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه.

والمبادئ التي كانت أسسها لبناء المجتمع الإسلامي، لم تكن تسمح للرجال أن

يختلطوا بالنساء، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ، مع أن مسيس الحاجة إلى تثقيفهن مباشرة لم يكن أهون وأقل من الرجال، بل كان أشد وأقوى.

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض، فيزكيهن ويربيهن، ويعلمهن الشرائع والأحكام، ويثقفهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن؛ لتربية البدويات والحضريات، العجائر منهن والشابات، فيكفين مؤنة التبليغ في النساء.

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله ﷺ المنزلية للناس، خصوصاً من طالت حياته منهن كعائشة، فإنها روت كثيراً من افعاله وأقواله.

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل، وهي قاعدة التبني. وكان للمتبني عند العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء. وكانت قد تاصلت تلك القاعدة في القلوب، بحيث لم يكن محوها سهلاً، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التي قررها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيرا من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام؛ ليمحوها عن المجتمع.

وقدر الله أن يكون هدم تلك القاعدة على يد رسول الله ﷺ وبذاته الشريفة، وكانت ابنة عمته زينب بنت جحش، وكانت تحت زيد بن حارثة الذي كان يدعى زيد بن محمد، ولم يكن بينهما توافق، حتى هم زيد بطلاقها، وفاتح بذلك رسول الله ﷺ، وقد عرف الرسول ﷺ - إما بإشارات الظروف، وإما بإخبار الله ﷻ إياه - أن زيدا إن طلقها فسيؤمر هو ﷺ أن يتزوجها بعد انقضاء عدتها، وكان ذلك في ظروف حرجة من تألب المشركين على رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان يخاف

-إذا وقع هذا الزواج- دعاية المنافقين والمشركين واليهود، وما يثيرونه من الوساوس والخرافات ضده، وما يكون له من الأثر السيئ في نفوس ضعفاء المسلمين، فلما فاتح زيد رسول الله ﷺ بإرادته طلاق زينب أمره بأن يمسكها ولا يطلقها، وذلك لئلا تجئ له مرحلة هذا الزواج في تلك الظروف الصعبة.

ولم يرض الله من رسوله ﷺ، هذا التردد والخوف حتى عاتبه الله عليه بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأخيرا طلقها زيد، وتزوجها رسول الله ﷺ في أيام فرض الحصار على بني قريظة بعد أن انقضت عدتها. وكان الله قد أوجب عليه هذا النكاح، ولم يترك له خيارًا ولا مجالًا، حتى تولى الله ذلك النكاح بنفسه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وذلك ليهدم قاعدة التبني فعلاً كما هدمها قولا: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكم التقاليد المتأصلة الجافة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لابد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية، كان هناك أولئك المسلمون الذين رآهم عروة بن مسعود الثقفي، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم، ورآهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة، والذين كان فيهم مثل أبو بكر وعمر، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته -بعد عقد الصلح- أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقم لامتثال أمره أحد، حتى أخذه القلق والاضطراب، ولكن لما أشارت عليه

أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر، ولا يكلم أحدا ففعل، تبادر الصحابة إلى اتباعه في فعله، فتسابقوا إلى نحر جزورهم. وبهذا الحادث يتضح جليا ما هو الفرق بين أثري القول والفعل لهدم قاعدة راسخة.

وقد أثار المنافقون وساوس كثيرة، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة وأن زيدا كان يعتبر ابنا للنبي ﷺ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى، وعلم الصحابة أن التبني ليس له أثر عند الإسلام، وأن الله تعالى وسع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره، لأغراضٍ نبيلة.

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبل والسمو والحسن، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد. قال أنس: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفا مرفقا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط. وقالت عائشة: إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. فقال لها عروة: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء. والأخبار بهذا الصدد كثيرة.

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهن ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة - حسب مقتضى البشرية، وليكون سببا لتشريع الأحكام - فأنزل الله آية التخيير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله، ولم

تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا.

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر. مع كثرتهن. إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التّحْريم: ١] إلى تمام الآية الخامسة.

تعدد زوجات النبي ﷺ

تعدد الزوجات عبر تاريخ الديانات السماوية:

١- إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم قد عددوا الزوجات ووصل الأمر بهم إلى الزواج من مئة مثل داود الذي لم يكتف بتسع وتسعين حتى تزوج تمام المئة بعد موت زوجها، وسليمان كانت له ثلاثمائة زوجة وأربعمائة جارية كما في العهد القديم مصدر التشريع الأول عند النصارى (ما جئت لأنقص بل لأكمل).

٢- كافة نصوص العهد القديم تأذن بالتعدد وتبيحه للأفراد رسلاً أو بشراً.

٣- لم يرد نص واحد يحرم التعدد في النصرانية وقد تأثر النصارى بالبلاد التي نشروا فيها النصرانية، ففي أفريقيا يأذنون بالتعدد ويبيحون الزواج للقساوسة، وفي أوروبا يحرمون التعدد ويحرمون الزواج على القساوسة ويبيحون الصداقة.

٤- النص الذي يستشهد به النصارى على تحريم التعدد هو (أما علمتم أن الخالق منذ البدء جعلهما ذكراً وأنثى وقال لهذا يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فما جمعه الله لا يفرقه إنسان). فجعلوا من ضمير الإفراد في قوله: «امرأته» أن الرجل لا يتزوج إلا بامرأة واحدة. والنص قد فهم على غير وجهه، فالمسيح حين سئل

«أيحل لأحدنا أن يطلق امرأته لأي علة كانت. . . » كانت إجابته كما سبق.

٥- أن الإجابة لا صلة لها بالتعدد بل بالنهي عن الطلاق لا التزوج.

٦- المسيحية تأذن بالتعدد بالتتابع ولكنها ترفضه بالجمع وينتهي التعدد عند الرابعة متتابعاً حتى لا يكون الإنسان غاوياً، وتسمح بالخلة والصديقة بدون حد ولا عد.

٧- كان العرب يجمعون بين أربعين امرأة في وقت واحد كدليل على الرجولة وطلب للولد.

٨- بالنسبة لتعدد زوجات الرسول ﷺ فإنه يرجع إلى أسباب اجتماعية وتشريعية وسياسية يمكن بيانها -والله أعلم- على النحو التالي:

أولًا: الأسباب الاجتماعية:

(أ) زواجه من خديجة رضي الله عنها وهذا أمر اجتماعي أن يتزوج البالغ العاقل الرشيد وكان -عليه الصلاة والسلام- في سن الخامسة والعشرين وظلت معه وحدها حتى توفيت وهو في سن الخمسين.

(ب) تزوج بعدها بالسيدة سودة بنت زمعة وكانت أرملة لحاجة بناته الأربع إلى أم بديلة ترعاهن وتبصرهن بما تبصر به كل أم بناتها.

(جـ) حفصة بنت عمر بن الخطاب تزوجها بعد وفاة زوجها إكراماً لأبيها سنة ٣هـ.

(هـ) زينب بنت خزيمة استشهد زوجها في أحد فتزوجها سنة ٤هـ.

(و) أم سلمة هند بنت أمية توفى زوجها ولها أولاد فتزوجها سنة ٤هـ.

ثانيًا: الأسباب التشريعية:

زواجه من عائشة رضي الله عنها فلقد كان بوحي، حيث رآها في المنام ورؤيا الأنبياء وحي.

زينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة الذي كان يدعى زيد بن محمد بالتبني فنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] وبعد خلاف مع زوجها طلقت منه وأمر الرسول ﷺ أن يتزوجها لإقامة الدليل العملي على بطلان التبني، وذلك سنة خمسة للهجرة.

ثالثًا: الأسباب السياسية:

كان لبعض زيجات الرسول ﷺ بعداً سياسياً من حيث ائتلاف القلوب والحد من العداوة وإطلاق الأسرى... إلخ، ومن هن:

١- جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وقعت في الأسر، تزوجها سنة ٦ هـ.

٢- أما حبيبة رملة بنت أبي سفيان، تنصر زوجها وبقيت على إسلامها، وكان للزواج منها كبير الأثر في كسر حدة أبي سفيان في العداء للإسلام، حتى هداه الله.

٣- صفية بنت حيي بن أخطب كانت من سبي خيبر أعتقها الرسول وتزوجها سنة ٧هـ.

٤- ميمونة بنت الحارث تزوجها سنة ٧هـ.

مات من هؤلاء اثنتان في حياة الرسول وهما خديجة وزينب بنت خزيمة وتوفى الرسول ﷺ عن تسع.

وأما الجواري فهما مارية القبطية التي ولدت إبراهيم وتوفى صغيراً، وريحانة بنت زيد القرطية.

إذن التعدد بدأ في سن الثالثة والخمسين من عمره فهل هذا دليل الشهوة، ومن يشته هل يتزوج الثيبات وأمهات الأولاد والأرامل، كيف وقد عرض عليه خيرة بنات قريش فأبى!

إن التعدد كله لحكم منها -فضلا عما سبق- بيان كل ما يقع في بيت النبوة من أحكام عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزَاب: ٣٤] وإذا كان الحكم الشرعي لا يثبت بخبر الواحد غالباً فإن للتعدد أثره في إثبات الأحكام بالتواتر، كما أن زوجات الرسول ﷺ اختلفت أحوالهن بين غنى وفقرٍ وحسب ونسب وبساطة لكل من يتزوج بأي صورة من هذه الصور قدوة في حياة الرسول ﷺ مع زوجته التي تطابق حال زوجه وتعددهن فيه بيان لكل ما يمكن أن يقع من النساء داخل البيت كالغيرة والصبر والتآمر وطلب الدنيا؟ والتواضع ونشر العلم والرضى... إلخ. إن بسط الكلام في هذا الأمر متعذر في هذه العجالة ومن أراد المزيد فليراجع زوجات النبي ﷺ لبنت الشاطئ. تعدد الزوجات لأحمد عبد الوهاب. الرحيق المختوم للمباركفوري.

وأخيرا، فمن نظر في حياة سكان أوروبا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ تعدد الزوجات، ونظر إلى مايقاسون من الشقاوة والمرارة، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ، وإن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

المعجزات المحمدية

إن المراد من المعجزات: ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله فيكون ما يأتي به النبي معجزًا لغيره من سائر الناس، بحيث لم يقدروا عليه أفرادًا أو جماعات؛ لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم، فإن قُرِن بالتحدي كان المعجزة الخاصة بالأنبياء، وإن لم يقرن بتحدٍّ فهو كرامة يكرم الله تعالى بها من يشاء من أوليائه وصالحي عباده؛ إذ الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي غالبًا والكرامة خالية من ذلك، فالمعجزة مثبتة للنبّوة مقررة لها، إذ بها يعرف النبي الحق من المدّعي الكاذب.

ولفظ المعجزة غير وارد في القرآن الكريم، وإنما الوارد لفظ الآية؛ لأنّ الأصل في الآية العلامة الدالة على الشيء، إذ يقول الإنسان لأخيه: فلان يقول لك: أعطني كذا أو كذا، فيقول له: ما آية ذلك؟ أي: ما علامته أنه قال: أعطه كذا أو كذا؟ فيريه خاتمه أو كتابه أو سيفه أو أي شيء خاص به فيكون ذلك آية وعلامة على صدق ما ادعاه وطالب به.

هذا وللحبيب محمد ﷺ معجزات أكرمه الله تعالى بها وصدق رسالته بمثلها بلغت الألف معجزة، هكذا قرر أهل العلم إن لم تكن أكثر من ذلك وها نحن نورد ما يحضرنا منها:

وأولى تلك المعجزات أو الآيات:

القرآن الكريم

لأنه كلام الله تعالى أوحاه الله فدل ذلك على نبوته، وصدقه في رسالته؛ لأن القرآن الكريم عجز بحروفه وكلماته وتراكيبه، ومعانيه، وأخبار الغيوب التي

وردت فيه، فكانت كما أخبر، كما هو معجز بالأحكام الشرعية والقضايا العقلية التي لا قبل للبشر بمثلها، مع التحدي القائم إلى اليوم بأن يأتي الإنس أو الجن متعاونين بمثله قال تعالى موحيه ومنزله: من سورة الإسراء، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسرَاء: ٨٨]، وتحدى العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان على أن يأتوا بعشر سورٍ مثله فما استطاعوا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[هُود: ١٣] وتحداهم بسورةٍ واحدةٍ من مثله فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ نفي لقدرتهم على الإتيان بسورة مثل القرآن في مستقبل الأيام، وقد مضى حتى الآن ألف وأربعمائة سنة وسبع سنين، ولم يستطع الكافرون أن يأتوا بسورة من مثله.

وهذا كان القرآن معجزة خالدة باقية ببقاء هذه الحياة، ولذا سيخلد الإسلام ويبقى إلى نهاية الحياة؛ لأن معجزته باقية كذلك.

انشقاق القمر

فقد روى أحمد والبخاري ومسلم في صحيحيهما أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقّين، قال مطعم: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

نزول المطر بدعائه ﷺ

لقد أمحلت البلاد، وأصابها قحط شديد فدخل رجل المسجد ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فاستقبل الرجل النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله لنا يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**اللهمّ اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا**»، قال أنس: والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء، وما بيننا وبين سلع [جبل داخل المدينة النبوية اليوم] من بيتٍ ولا دارٍ فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، والله ما رأينا الشمس سِتًّا، ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله الرجل، وقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، ادع الله يمسكها، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال ومنابت الشجر**». قال أنس: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس. رواه البخاري ومسلم.

فهذه المعجزة وهي نزول المطر بدعائه ﷺ قد كررت مرات عديدة وهي معجزة سماوية كانشقاق القمر ولا دخل لغير القدرة الإلهيّة فيها، وهي آية نبوّته ﷺ ولكثرة تكرار هذه الآية كانوا يردّدون قول أبي طالب فيه:

وأبيض يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

نبوع الماء من بين أصابعه أسمائه ﷺ

ومن معجزات الحبيب ﷺ الدالة على نبوّته وصدق رسالته نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة، فقد قال أنس بن مالك -خادم رسول الله ﷺ-: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء [الوضوء بفتح الواو الماء

يتوضؤ به]، فلم يجدوه فأُتِي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يدهُ في ذلك الإناء، وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلثمائة رجل. أخرجه البخاري ومسلم.

فهذه معجزة ظاهرة؛ إذ ليس في طوق البشر أن يأتوا بمثلها، إذ لم تجر سنة الله في الكون أن الماء ينبع من بين أصابع الإنسان مهما كان إلا أن تكون آية تدل على صدق نبّوة من ادعاها، فقد كانت هذه آية نبّوته ﷺ إذ وقعت في سوق المدينة العاصمة وحضرها وشهدها قرابة الثلثمائة رجل من أصدق الرجال وأذكاهم، وأتقاهم.

فيضان ماء بئر الحديبية:

وروى الإمام البخاري رحمه الله من معجزاته ﷺ أنه لما كان بالحديبية [مكان يبعد عن مكة بنحو عشرين ميلاً] هو وأصحابه سنة ست من الهجرة، وكان من الحديبية بئر ماء فنزحها أصحابه بالسقى منها حتى لم يبق فيها ما يملأ كأس ماء وكانا ألفًا وأربعمائة رجل، وخافوا العطش فشكوا ذلك إليه ﷺ.

فجاء فجلس على حافة البئر فدعا بماء فجيء به إليه فتمضمض منه، ومجّ ما تمضمض به في البئر فما هي إلا لحظات، واذا البئرُ فيها الماء فأخذوا يسقون فسقوا وملأوا أوانيهم وأدوات حمل الماء عندهم، وهم كما تقدم ألف وأربعمائة رجل وهم أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم، وأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفَتْح: ١٨]، ففيضان الماء من بئر جافة لا ماء بها حتى سقى منها أهل معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبويّة صادقة تنطق قائلة أن صدقوا محمدًا فيما جاءكم به ودعاكم إليه فإنه رسول الله إليكم حقًا وصدقًا.

قدح لبن روى فئامًا من الناس

روى البخاري -رحمه الله تعالى- في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ القصة التالية:

قال: والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشُدُّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ﷻ ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمرّ عمر ﷺ فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليستتبعني فلم يفعل، فمر أبو القاسم ﷺ فعرف ما في وجهي، وما في نفسي فقال: «**أبا هريرة**» قلت له: لبيك يا رسول الله فقال: «**الحق**» واستأذنت فأذِن لي فوجدت لبنًا في قدح، قال: «**من أين لكم هذا اللبن؟**» فقالوا: أهداه لنا فلان -أو آل فلان-، قال: «**أبا هرٍّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال -أي أبو هريرة-: وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهلٍ ولا مالٍ، إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها، قال أبو هريرة: وأحزنني ذلك كنت أرجوا أن أصيب من اللبن شربة أتقوّى بها بقية يومي وليْلتي، وقلت: أنا الرسول فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيتهم، وقلت: ما يبقى لي من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وورسوله بدٌّ، فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال: «**يا أبا هريرة خذ فأعطهم**» فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يُروى، ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يديه وبقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه ونظر إليّ وابتسم، وقال: «**أبا هريرة**»، فقلت: لبيك رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**» فقلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**فاقعد فاشرب**»، قال: فقعدت فشربتُ، ثم قال لي: «**اشرب**» فشربتُ فما زال يقول لي: اشرب فأشرب حتى قلت: لا،

والذي بعثك بالحق ما أجد له فيّ مسلكًا، قال: «**ناولني القدح**» فرددته إليه فشرب من الفضلة.

وهكذا تتجلى هذه المعجزة وهي آية النبوّة المحمدية، إذ قدحُ لبن لا يروي ولا يشبع جماعة من الناس كلهم جياع بحالٍ من الأحوال، فكيف أرواهم وأشبعهم؟ إنها المعجزة النبوية، وآية أخرى للكمال المحمدي أن يكون ﷺ هو آخر من يشرب من ذلك القدح الذي شرب جماعة من الناس.

وهنا يقال: ما بال الذين يتقززون من شرب السؤر ويرفضونه في كبرياء وخوف أيضًا أن يصابوا بمرض من ذلك؟ أين هم من هذ الكمال المحمدي؟ إنهم بعيدون كل البعد ذاهبون في أودية الأوهام حيث لا يسمعون ولا يبصرون.

الطعام القليل يشبع العدد الكثير

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها فلّفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم فقال رسول الله ﷺ: «**أرسلك أبو طلحة؟**» فقلت: نعم، قال: «**بطعام؟**» قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «**قوموا**» فانطلق، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم؟ فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «**هلمّ يا أم سليم ما عندك؟**» فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ ففُتّ، وعصرت

أم سليم عكة فآدمته، ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «**ائذن لعشرة**»، فأكل القومك كلهم، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً. أليست هذه من أعظم المعجزات؟ بل وربِّي إنها لمن أعظم المعجزات إن أقراصًا عدة حملها غلام تحت إبطه يطعم منها ثمانون رجلاً ويشبع كل واحدٍ منهم شبعًا لا مزيد عليه، إن لم تكن هذه معجزة فما هي المعجزات إذًا يا تُرى؟

تكثير الطعام

إن معجزة تكثير الطعام والشراب قد تكررت فبلغت عشرات المرات، وفي ظروفٍ مختلفة، ومناسباتٍ عديدة، منها ما تقدم، ومنها هذه، فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها (وهي غزوة تبوك) فأرمل [نفد زادهم واحتاجوا إلى الطعام] فيها المسلمون واحتاجوا إلى الطعام فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل فأذن لهم، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إبلهم تحملهم وتبلغهم علوهم ينحرونها؟ ادع يا رسول الله بغبّرات [غبرات الزاد: بقاياه] الزاد فادع الله عز وجل فيها بالبركة، قال: «**أجل**» فدعا بغبرات الزاد فجاء الناس بما بقي معهم فجمعت، ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة، ودعاهم بأوعيتهم فملأوها وفضل كثير، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبد الله ورسوله، ومن لقي الله عز وجل بها غير شاكٍ دخل الجنة**» رواه أحمد ومسلم.

فهذه معجزة ظاهرة في تكثير الطعام القليل حتى أصبح كثيرًا وهي كما تقدم واحدة من عشرات المعجزات في تكثير الطعام والشراب.

توفية دين جابر الذي استغرق كلّ مالِه

فقد روى البخاري -رحمه الله تعالى- في دلائل النبوة المحمدية قصة جابر الآتية: فقال: حدثنا أبو نعيم وساق السند إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنهما فقال: إنّ أبي تُوفيّ وعليه دين فأتيت النبي ﷺ فقلت: إن أبي ترك دينًا، وليس عندي إلا ما يخر نخله، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكيلا يفحش عليّ الغرماء فمشى حول بيدر [الموضع الذي يجمع فيه التمر] من بيادر التمر فدعا، ثم آخر، ثم جلس عليه فقال: «**انزعوه**» فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم، وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق كل التمر ولسنين عدة أيضًا، ووفّى التمر الموجود كل الديون وبقي التمر في البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة، وذلك ببركة وجود الرسول ﷺ بين البيادر ودعائه بالبركة فيها، فباركها الله عز وجل فوفت الديون وزادت، فكانت آية النبوة والمعجزة الظاهرة التي يبعث بها الأنبياء، ويكرم الله تعالى بها الأولياء متى شاء وهو على كل شيءٍ قدير.

انقياد الشجر له ﷺ

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح [أي: واسعاً رحباً] فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فأتبعته بإداوة فيها ماء، فنظر فلم ير شيئًا يستتر به وإذ شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق إلى إحداهما فأخذ ببعضٍ من أغصانها وقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**»، فانقادت معه كالبعير المخشوش [الذي جُعل في أنفه الخشاش وهو العود يجلع في عظم أنف الجمل لينقاد] الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضًا من أغصانها وقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي

يُصانع قائده حتى إذا كانت بالمنتصف فيما بينهما لاءم بينهما أي جمعهما، وقال: «**التئما عليّ بإذن الله**» فالتأمتا.

قال جابر: فخرجت أحضر [أي: أعْدُو بشدّة] مخافة أن يحس بقربي منه فيبعُد، فجلست أحدّث نفسي فحانت منّي التفاتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مُقبلٌ وإذا الشجرتان قد افترقتا، وقامت كل واحدةٍ منهما على ساقٍ إلى آخر الحديث..

فهذه إحدى المعجزات الخارقة للعادة التي لا تكون إلا لنبي من الأنبياء عليهم السلام، إذ كون الشجرة تستجيب وتنقاد مطيعة لأمر رسول الله ﷺ هو أمرٌ خارق للعادة لم تجر به سنن الله تعالى في الكون، وبذا كانت معجزة للحبيب ﷺ.

حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ

فقد روى أحمد رحمه الله بإسناده وأصل الحديث في صحيح البخاري وقد صحح الحديث بتمامه الألباني عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلةٍ فقالت امرأة من الأنصار وكان لها غلام نجار: يا رسول الله إن لي غلامًا نجارًا أفآمره أن يتخذ لك منبرًا تخطب عليه؟ قال: «**بلى**»، فاتخذ له منبرًا فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر فأنّ الجذع الذي كان يقوم عليه كما يئِنّ الصبي، فقال النبي ﷺ: «**إن هذا بكى لما فقد من الذكر**». وفي رواية البخاري فصاحت النخلة (جذع النخلة) صياح الصبي، ثم نزل ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: «**كانت تبكي (النخلة) على ما كانت تسمع من الذكر عندها**»، فحنين الجذع شوقًا إلى سماع الذكر وتألمًا لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفًا عليه وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر، وحسب علم الناس بالجمادات آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق رسالته وهي معجزة كبرى على مثلها آمن البشر لعجزهم على الإتيان بمثلها.

سلام الحجر عليه ﷺ

فقد روى مسلم وأحمد بسنده عن جابر بن سُمرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن**»، فسلام الحجر وهو جماد أمر خارق للعادة، معجز للبشر أن يأتوا بمثله، فلذا هو آية النبوة المحمدية ومعجزة من معجزات الحبيب ﷺ.

سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه

كما روى مسلم أن النبي ﷺ دخل يومًا مع بعض أصحابه حائطًا من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن، فقال ﷺ: «**من صاحب الجمل؟**» فجاء فتى من الأنصار قال: هو لي يا رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «**أما تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك؛ إنه شكا إليّ أنك تجيعُه وتدئبه**» أي: تواصل العمل عليه بدون انقطاع.

أليست هذه آية من آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاتها؟ بلى، ولذا كان الكفر بنبوة محمد ﷺ من أقبح الكفر وأسوأه، ولا يكون إلا من جهل كامل، أو حسد قاتل، أو خوف فوات منافع مادية طائلة، كما كان شأن الجهال من الأمم والشعوب وحسد اليهود، وخوف رجال الكنيسة من زوال سلطانهم الروحي، وما يترتب عليه من فقدانهم المال والرئاسة الروحية على الشعوب المسيحية.

شهادة الذئب برسالته ﷺ

فقد روى أحمد -رحمه الله تعالى- في مسنده والترمذي في سننه وصحح إسناده الألباني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبها الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقًا ساقه الله إليّ. فقال: يا عجبى ذئب يكلمني كلام الإنس!! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بشر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر النبي ﷺ فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق والذي نفس محمدٍ بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده**».

هذه آية من آيات النبوّة المحمدية، ومعجزة من معجزاته بكل شطريها: الأول الذي فيه كلام الذئب للراعي، والثاني الذي فيه إخبار بغيب لم يكن فكان اليوم، فعذبة السوط ظاهرة في تلفون الشرط، وتكليم الفخذ وشراك النعل ظاهرة كذلك في آلات التسجيل الصغيرة التي يستعملها رجال المخابرات بمهارة خاصة.

فنطق الغزالة ووفاؤها له ﷺ آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته الموجبة للإيمان به وطاعته ومحبته ﷺ.

شفاء علي رضي الله عنه بتفاله ﷺ

ففي الصحيح قال ﷺ في غزو خيبر: «**لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده**»، فلما أصبحوا نادى عليًّا،

فقالوا: مريض يا رسول الله يشكو عينيه فقال: «**ائتوني به**»، فأتي به فنفث في عينه بقليل من ريقه ﷺ فبرأ لتوّه ولم يمرض بعينه بعد قط.

فكانت أية من آيات النبوة المحمدية، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته وصدق رسالته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

صدق إخباره بالغيب ﷺ

ومن آيات النبوة والمعجزات المحمدية صدق أخباره الغيبيّة الآتية:

- قوله ﷺ في الحسن رضي الله عنه: «**إن ابني هذا سيد وسيُصلح الله به بين فئتين عظيمتين**» رواه البخاري، فكان الأمر كما أخبر ﷺ فقد أصلح به بين من كان مع الحسن وبين من كان مع معاوية رضي الله عنهم أجمعين.

- قوله ﷺ: «**اثبت أحد فإنما عليك نبيّ وصدّيق وشهيدان**» رواه البخاري، فكان كما أخبر ﷺ، فمات أبو بكر بمرضٍ أصابه، وقُتل عمر في المحراب شهيدًا، وقُتل عثمان في داره شهيدًا، فرضي الله عنهم أجمعين.

- قوله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة**». رواه البخاري ومسلم، وقد وقع هذا كما أخبر، فقد اقتتل عليّ ومعاوية رضي الله عنهما بجيشيهما في صفين، ودعواهما واحدة، فكان ما أخبر به ﷺ كما أخبر فهي آية نبوّته ﷺ ومعجزته التي على مثلها آمن البشر.

- قوله ﷺ لخباب بن الأرت وقد جاء يشكو إليه ما يلقى المؤمنون من كفار قريش، يطلب منه أن يستنصر الله تعالى لهم، قال له وقد احمّر وجهه ﷺ - أو تغير لونه -: «**لقد كان من قبلكم تحفر له الحفرة، ويُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمّن اللهُ هذا الأمر، حتى يسير الراكب**

ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه» رواه البخاري، وقد تم هذا كما أخبر ﷺ، فكان آية نبوته ومعجزتها التي لا يقدر عليها أحدٌ إلا الله جل جلاله، وعظم سلطانه.

- قوله ﷺ: «**منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم**» رواه مسلم. فهذا الخبر قد وقع كما أخبر ﷺ، فقد منعت العراق، ومنعت الشام، ومنعت مصر، ما كانوا يؤدونه إلى أهل الحجاز من خراج وغيره، وعاد أهل الحجاز كما بدأوا فمسّهم الجوع، ونالهم التعب بعد ما أصابهم من رغد العيش وسعة الرزق، فكان هذا آية النبوة المحمدية ومعجزة على مثلها آمن البشر.

- قوله ﷺ في عثمان رضي الله عنه: «**افتح له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه**». وذلك في حديث الصحيح ونصه: إن النبي ﷺ دخل حائطًا (بستانًا) فدلّى رجليه في القفّ[1] فقال أبو موسى وكان معه: لأكوننّ اليوم بواب رسول الله ﷺ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال: افتح فقلت من أنت؟ قال: أبو بكر، فأخبرت رسول الله ﷺ، فقال: «**افتح له وبشره بالجنة**»، ثم جاء عمر فقال كذلك، ثم جاء عثمان فقال: «**ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه**». فهذا الخبر من أنباء الغيب الدالة على نبّوته ﷺ.

- قوله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «**إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل عام مرّة، وإنه عارضني العام مرتين، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي**». فبكت ثم سارّها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة، وأنها أول أهله لحوقًا به، فكان كما أخبر إذ ماتت بعده بستة أشهر، ولم يمت قبلها من آل البيت أحد، فكان هذا الخبر آية نبوّته ﷺ.

---

(١) القف: الدكة تجعل حول البئر يجلس عليها وتدلى الأرجل في الماء المستخرج من البئر.

- قوله ﷺ: «**ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة**»، وسئل عنها فقال: «**هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي**».

فهذا القول النبوي الشريف منه كان كما أخبر، حيث بلغت فرق هذه الأمة ثلاث وسبعين فرقة كما أخبر، فكان آية النبوة المحمدية. وكانت تلك أربعين معجزة للحبيب ﷺ، والمراد من إيرادها تقوية إيمان المؤمنين، ودعوة غيرهم إلى الإيمان به ﷺ نبيًا ورسولاً تجب متابعته وتتحتم طاعته وتلزم محبته من أجل النجاة من الخسران، والفوز بالمغفرة والرضوان، في دار السلام مع مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، إذ قال تعالى، وقوله الحق من سورة النساء من كتابه الكريم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾.

الأخلاق المحمديّة التي فيها أسوة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القَلَم: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزَاب: ٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القَلَم: ٤] شهادة من الله تعالى له ﷺ بأنه على أكمل الأخلاق وأتمها وأرفعها وأفضلها، بحيث لا يدانى فيها بحال من الأحوال.

وفي قوله في الحديث الصحيح: «**بعثت لأتمم صالح الأخلاق**».

وفي قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ

﴿ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] إعلام من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء برسوله الذي كمله خلْقًا وخُلْقا، وشرفه أصلاً ومحتدًا، ورفعه منزلةً وقدرًا، حتى لا تأنف النفوس في اتباعه، والاقتداء به في كل ما هو في استطاعتها التّحلِّي به، والتقرب إلى ربها ﷻ باتباعه والاقتداء به فيه.

ومن هنا كان الكمال المحمدي ضربين: ضربًا لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرء عن كسب مثله وذلك كشرف الأصل، وجمال الذات، وعلوّ القدر، والاصطفاء للرسالة، وتلقي الوحي الإلهيّ، وضربًا مأمورًا بالاقتداء به فيه، والمنافسة في تحصيل أكبر قدر منه، والمسابقة إليه، والجدّ في الطلب للظفر به، والحصول عليه، وهو ما سنذكر جملاً صالحة منه، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحليّ به، والحياة والموت عليه، اللهم آمين.

الآداب المحمدية

لقد كان ﷺ يتجمل بالآداب التالية ويتحلى بها وهي:

أولًا: غض الطرف فلا يبتع نظره الأشياء، وكان جل نظره الملاحظة، فلا يحملق إذا نظر، ونظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء.

ثانيًا: إذا مشى مع أصحابه يسوقهم أمامه فلا يتقدمهم، ويبدأ من لقيه بالسلام.

ثالثًا: إذا تكلم يتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، أي: على قدر الحاجة، فلا زيادة عليها ولا نقصان عنها، وهذا من الحكمة وكان يقول: «**من حسن إسلام المر تركه ما لا يعنيه**» ويقول: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**». ويبدأ كلامه ويختمه بأشداقه من أجل أن يسمع محدثه ويُفهِمهُ لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت.

رابعًا: متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، دمث الخُلُق، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النّعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا ولا يمدحه.

خامسًا: لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تُعُرِّض للحقّ لم يعرفْه أحد، ولم يقم لغضبه شيءٌ حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها.

سادسًا: إذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُلُّ ضحِكه التبسُّم، ويفترّ عن مثل حبّ الغمام.

سابعًا: إذا تكلم تكلم ثلاثًا، وإذا سلم سلم ثلاثًا، وإذا استأذن استأذن ثلاثًا، وذلك ليعقل عنه ويفهم مراده من كلامه نظرًا إلى ما وجب عليه من البلاغ.

ثامنًا: كان يشارك أصحابه في مباح أحاديثهم، إذا ذكروا الدنيا ذكرها معهم، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم، وإذا ذكروا طعامًا أو شرابًا ذكره معهم.

تاسعًا: كان إذا جلس نصب ركبتيه واحتبى بيديه، وإذا جلس للأكل نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى.

عاشرًا: كان لا يعيب طعامًا يقدم إليه أبدًا، وإنما إذا أعجبه أكل منه، وإن لم يعجبه تركه، هذه الآداب مجملة، وكلها يمكن الاقتداء به فيها، وهو غاية الطلب، وبغية أولي الأرب.

الأخلاق المحمديّة

إن لذوي الأخلاق الفاضلة منزلة عالية. ففي الحديث الصحيح: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**» رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح، «**إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا**» رواه البخاري ومسلم.

وسُئل ﷺ عن البر، فقال: «**حسن الخلق**» أخرجه مسلم.

ومن هنا كان اكتساب الأخلاق الفاضلة خيرًا من اكتساب الذهب والفضّة، والأموال الطائلة، والطريق إلى ذلك هو الائتساء بالنبي الحبيب ﷺ، ولذا كان إيرادنا للأخلاق المحمدية في آخر هذا الكتاب من باب حمل المسلم على اكتساب تلك الأخلاق المحمدية الفاضلة، ودفعًا له على التجمل والتحلي بها، ليكمل بها ويفضل ويشرف عليها، بعد أن عرف صاحبها، وعرف كمالاته الذاتية والروحيّة، وقوى إيمانه به نبيًا ورسولاً تجب طاعته ومتابعته وتعظيمه ومحبته وتوقيره.

وهذه نماذج من تلك الأخلاق لننظر إليها، فلْنُوطِّن النّفس على اكتسباها والتخلق الصادق بها.

الكرم المحمّدِي

* إن الأمر المحمدي كان مضرب الأمثال، وقد كان ﷺ لا يردّ سائلاً وهو واجد ما يعطيه، فقد سأله رجل حّلةً كان يلبسها، فدخل بيته فخلعها، ثم خرج بها في يديه وأعطاه إياها، ففي صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا على الإسلام إلا أعطاه، سأله رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فأتى الرجل قومه فقال لهم: يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة، إن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمسي حتى يكون دينه أحبّ إليه وأعز من الدنيا وما فيها، وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سئل عن جود الرسول وكرمه فقال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة. بمعنى أن عطاءه دائم لا ينقطع بيسر وسهولة.

وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق، وهو القائل: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**» أخرجه البخاري ومسلم.

* والقائل أيضًا: «**يقول الله تعالى: ابن آدم أنفِق أُنفِق عليك**» أخرجه البخاري ومسلم. وقد نزل عليه قول ربّه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبإ: ٣٩].

الحلم المحمدي

إن الحلم وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يكره قولاً كان أو فعلاً عند الغضب، وما يثيره هيجانُه من قولٍ سيئ أو فعلٍ غير محمود، هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل، والأحداث التالية شواهد لحلمه فداه أبي وأمي وﷺ، وذلك لتربية الله تعالى له، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ:

* لما شجّت وجنتاه وكسرت رباعيته ودخل المغفر في رأسه ﷺ يوم أُحُد قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**» رواه البخاري ومسلم. فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ.

* لما قاله له ذو الخويْصرة: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، حلُم عليه وقال له: «**ويحك فمن يعدل إن لم أعدلْ**» رواه البخاري ومسلم، ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك.

* عن أنس بن مالك قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي

من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء» رواه البخاري ومسلم.

هذه قطرةٌ من بحر الحلم المحمدي تُذهب ظمأ من أراد أن يتحلّى بالحلم ويتجمل به.

العفوُ المحمّدي

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيء المبطل، وهو من خلال الكمال، وصفات الجمال الخلقي، أمر الله تعالى به رسول الله في قوله من سورة الأعراف: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

* قالت عائشة رضي الله عنها: «**ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه**[(١)] **إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله بها**» رواه البخاري ومسلم.

* تصدّى له غوْرث بن الحارث ليفتك به ﷺ، ورسول الله مطرح تحت شجرة وحده قائلاً، وأصحابه قائلون كذلك، وذلك في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وغورث قائم على رأسه، والسيف مصلت في يده، وقال: من يمنعك مني؟ فقال ﷺ: «**الله**». فسقط السيف من يد غورث، فأخذه النبي ﷺ وقال: «**من يمنعك؟**» قال غورث: كن خير آخذٍ فتركه وعفا عنه. فعاد إلى قومه فقال: «**جئتكم من عند خير الناس**» رواه البخاري ومسلم، فهكذا كان العفو المحمدي.

---

(١) هو معنى أنه يعفو عمن ظلمه.

الشجاعة المحمدية

* إن الشجاعة خلق فاضل، ووصف كريم، وخلة شريفة، لا سيما إذا كانت في العقل كما هي في القلب، وكان صاحبها من أهل الإيمان والعلم، والشجاعة في القلب عدم الخوف مما يخاف عادة، والإقدام على دفع ما يخاف منه بقوة وحزم، وفي العقل المضاء فيما هو الرأي وعدم النظر إلى عاقبة الأمر متى ظهر أنه الحق والمعروف، وقد كان الحبيب محمد ﷺ أشجع إنسان على الإطلاق، فلم تكتحل عين الوجود بمثله ﷺ، ومن أدلة ذلك تكليف الله تعالى له بأن يقاتل وحده في قوله من سورة النساء: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النِّساء: ٨٤] .

ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها ما يلي:

* شهادة الشجعان الأبطال له بذلك فقد قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ» متفق عليه أي: نتقي الضرب والطعان.

* موقفه البطولي الخارق للعادة في أُحد حيث فر الكماة، ووجم الأبطال وذهل عن أنفسهم الشجعان، ووقف محمد رسول الله كالجبل الأشم حتى لاذ به أصحابه، والتفوا حوله وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم لمخالفة أمره ﷺ.

* وفي حنين حيث انهزم أصحابه وفر رجاله لصعوبة مواجهة العدو، من جراء الكمائن التي نصبها وأوقعهم فيها وهم لا يدرون، بقي وحده ﷺ في الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**».

وما زال في المعركة وهو يقول: «**إليّ عباد الله، إليّ عباد الله**» حتى فاء أصحابه

إليه، وعاودوا الكرة على العدو فهزموه في ساعة، وما كانت هزيمتهم أول مرة إلا من ذنب ارتكبه بعضهم وهو قوله: لن نغلب اليوم من قلة؛ إذ هذا القول كان عُجبًا والعُجب حرام، وقد ذكرهم تعالى به في كتابه إذ قال تعالى من سورة التوبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

* فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ[١] الخبر على فرس لأبي طلحة عُري والسيف في عنقه وهو يقول: «**لن تراعوا**». في هذه يقول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، وقص هذه القصة، رواه البخاري ومسلم.

كانت تلك شواهد شجاعته القلبيّة، أما شجاعته العقلية، فنكتفى فيها بشاهد واحد، فإنه يكفى عن ألف شاهد ويزيد، وهو موقفه من تعنّت سهيل بن عمرو وهو يملي وثيقة صلح الحديبية، إذ تنازل ﷺ على كلمة بسم الله إلى باسمك اللهم، وعن كلمة محمد رسول الله إلى كلمة محمد بن عبد الله، وقد استشاط أصحابه غيظًا، وبلغ الغضب حدًّا لا مزيد عليه وهو صابر ثابت حتى انتهت، وكانت بعد أيام فتحًا مبينًا فضرب ﷺ بذلك المثل الأعلى في الشجاعتين القلبية، والعقلية، مع بعد النظر وأصالة الرأي وإصابته فـ ﷺ ما بقي شجاعة أو جبن في العالمين.

الصبْر المحمّدي

إن الصبر وهو حبس النفس على طاعة الله تعالى حتى لا تفارقها، وعن معصية الله تعالى حتى لا تقربها، وعلى قضاء الله تعالى حتى لا تجزع له ولا تسخط عليه، هذا هو الصبر في مواطنه الثلاثة وهو خلق من أشرف الأخلاق وأسماها، وهو

(١) يقال استبرأ الخبر إذا طلبه حتى وقف على حقيقته.

خلق مكتسب يحمل العاقل عليه نفسه ويروضها شيئًا فشيئًا حتى يصبح ملكة لها ثابتة عفوًا بدون طلب.

يدل على ذلك أمره تعالى رسوله به في غير موطن من كتابه العزيز وذلك كقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النّحل: ١٢٧]، وقوله في أمر كافة المؤمنين به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠]

وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر طيلة عهد إبلاغ رسالته الذي دام ثلاثًا وعشرين سنة، فلم يجزع يومًا، ولم يتخلّ عن دعوته وإبلاغ رسالته حتى بلغ بها الآفاق التي شاء الله تعالى أن تبلغها، وباستعراضنا المواقف التالية تتجلى لنا حقيقة الصبر المحمدي الذي هو فيه أسوة كل مؤمن ومؤمنة في معترك هذه الحياة.

* صبره ﷺ على أذى قريش طيلة ما هو بين ظهرانيها بمكة، فقد ضربوه، والقوا سلى الجزور على ظهره، وحاصروه ثلاث سنوات مع بني هاشم في شعب أبي طالب، وحكموا عليه بالإعدام، وبعثوا رجالهم لتنفيذه فيه إلا أن الله سلّمه، وعصم دمه، كل هذا لم يرده عن دعوته، ولم يثن عزمه عن بيانها وعرضها على القريب والبعيد.

* صبره ﷺ عام الحزن، حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون، ومات العم الحاني الحامي المدافع أبو طالب، فلم تفتّ هذه الرزايا من عزمه، ولم توهن من قدرته، إذ قابل ذلك بصبر ولم يعرف له في تاريخ الأبطال مثل ولا نظير.

* صبره في كافة حروبه في بدر وفي أحد وفي الخندق وفي الفتح وفي حنين وفي الطائف وفي تبوك، فلم يجبن ولم ينهزم، ولم يفشل، ولم يكل ولم يمل حتى خاض حروبًا عدة، وقاد سرايا عديدة، فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات، فأيّ صبرٍ أعظم من هذا الصبر؟؟

* صبره على تآمر اليهود عليه بالمدينة وتحزيبهم الأحزاب لحربه والقضاء عليه، وعلى دعوته.

* صبره على الجوع الشديد قد مات ولم يشبع من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط.

* لقد صبر ﷺ على كل ذلك فلم يهن ولم تضعف همته، ولم تمس كرامته ولم يدنس عرضه، ولو أوذي غيره بمعشار ما أوذي أو أصابه من البلايا والرزايا دون ما أصابه لتخلى عن دعوته، وهرب من مسئوليته، ووجد في نفسه مبررًا لذلك، ولكن الله عصمه فصبّره وجبره، وحماه وقواه ليبلغ عنه رسالته، ويجعله آية للناس في صبره وحكمته وعفوه وكرمه وشجاعته وفي سائر أخلاقه فﷺ تسليمًا كثيرًا.

العدْل المحمّديّ

إن العدل خلاف الجوْر أمر الله تعالى به في القول والحكم فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النّساء: ٥٨]، وعلى العدل قام أمر السماء والأرض، ومن هنا كيف لا يكون رسول الله ﷺ عادلاً وهو القائل: «**إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط**» رواه أبو داود وحسنه الألباني، والمقسط أي: العادل، وذكر أن سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وعد منهم الإمام العادل، وقال: «**إن المقسطين على منابرٍ من نور يوم القيامة**» رواه مسلم، وبين أنهم الذين يعدلون في حكمهم وما ولوا، ولذا كان ﷺ عادلاً في قوله وفعله وحكمه، لا يجور ولا يحيف، وكان العدل من أخلاقه وأوصافه اللازمة له، فقد عُرف به في الجاهلية قبل الإسلام، وهذه مواقف له ﷺ

يتجلى فيها هذا الخلق النبوي الكريم وهي:

* لما سرقت المخزوميّة، وشق على المسلمين إقامة الحد عليها فتقطع يدها فتوسطوا له بحبّه وابن حبّه أسامة بن زيد فرفع إليه القضية، فقال: «**أتشفع في حدٍ من حدود الله تشفع يا أسامة؟ والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**» متفق عليه، فكان هذا مظهرًا عظيمًا للعدل المحمدي.

* وقوله للأعرابي الذي قال له: اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: «**ويحك فمن يعدل إن لم أعدل؟! خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل**» رواه البخاري ومسلم.

* وفي الطعام والشراب كان يقول: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولابد فاعلاً، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**» رواه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

* وكان ﷺ يقسم وقته ثلاثة أجزاء: جزءًا لربه تعالى، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ويقسم الجزء الذي لنفسه بينه وبين الناس.

وهكذا يتجلى خلق العدل في الحبيب ﷺ بصورةٍ واضحة، يدعو كلّ مؤمن إلى التّخلُّق به ائتساءً به ﷺ، وهو أسوة كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة.

الزهد المحمدي

إنّ المراد بالزهد الزهد في الدنيا، وذلك بالرغبة عنها، وعدم الرغبة فيها، وذلك بطلبها طلبًا لا يشق، ولا يحول دون أداء واجب، وسد باب الطمع في الإكثار منها والتزيد من متاعها، وهو ما زاد على قدر الحاجة، وقد كان ﷺ

يقول: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**» رواه ابن ماجه وصححه الألباني، وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم رغبة فيها، حتى كان الزهد خلقًا من أخلاقه الفاضلة وسجيّة من سجاياه الطيبة الطاهرة.

والمواقف الآتية تدل على ذلك وتشهد له وتقرره:

* قوله ﷺ في الصحيح: «**لو كان لي مثل أحد ذهبًا لما سرّني أن يبيت عندي ثلاثًا إلا قلت فيه هكذا وهكذا إلا شيئًا أرصده لدين**» رواه البخاري ومسلم. فهذا أكبر مظهر للزهد الصادق الذي كان الحبيب ﷺ يعيش عليه ويتحلى به.

* قوله ﷺ لعمر وقد دخل عليه فوجده على فراش من أدم حشوه ليف قال عمر يصف فراش رسول الله ﷺ: «**وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ فبكيت فقال ما يبكيك فقلت يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولك الآخرة**» رواه البخاري ومسلم.

فكان هذا أقوى مظهر من مظاهر الزهد المحمدي الصادق.

قول عائشة رضي الله عنها مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفّ لي. وقد قبض رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير.

وبالتأمل في هذه المواقف تتجلى الحقيقة واضحة وهي أن الزهد الحق كان خلق النبي الحبيب ﷺ.

فصل اللهم وبارك وسلم على عبدك ورسولك أزهد الزهّاد، وأفضل العبّاد إلى يوم التلاقي والميعاد.

الحياء المحمدي

إن الحياء خلق فاضل فاقده لا خير فيه، إذ هو من الإيمان، وهو خير كله، وحقيقته أنه تغّير يسببه الخوف مما يكره قوله أو فعله، أو يُذم عليه، ويظهر أثره في احمرار الوجه، وترك ما يخشى معه الذم والملامة، وهو في المرأة بمنزلة الشجاعة في الرجل، أي كما أن الشجاعة محمودة في الرجل أكثر ما هي محمودة في المرأة، فكذلك الحياء هو في المرأة محمود أكثر مما هو في الرجل، ومع هذا فهو خلق فاضل كريم قال فيه رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان**»، وقال: «**الحياء كله خير**»، و«**الحياء لا يأتي إلا بخير**»، و«**الحياء شعبة من الإيمان**» في أحاديث صحاح.

ومن مظاهر الحياء المحمدي التي يتجلى فيها بوضوح ما يلي:

* قوله تعلى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالحياء وكفى بها شهادة.

* رواية الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيها، قال: كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من البكر في خدرها[١]، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه.

* قول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «**ما بال أقوامٍ يصنعون أو يقولون كذا**»، ينهى ولا يسمي فاعله.

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا[٢]

---

(١) الخدر: الستر في البيت.

(٢) الفاحش: من يصدر عنه الفحش وهو القول أو الفعل القبيح، والمتفحش من يتعمد الفحش ويبالغ فيه.

ولا متفحِّشا ولا سخابًا[١] في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، وهذا وصفه في التوراة أيضًا كما رواه عبد الله ابن سلام رضي الله عنه.

وكان ﷺ من شدة حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، ويكْنِي عما اضطره الكلام إليه ما يكره ولا يصرح به.

كانت هذه مظاهر حيائه ﷺ وشواهده، وفيها كفاية لمن أراد أن يأتسي ﷺ في حيائه، وفي سائر أخلاقه، فقد جعله الله تعالى أسوة المؤمنين، فقال تعالى في آيتين من كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ[٢] حَسَنَةٌ[٣]﴾ [الأحزاب: ٢١].

حُسن عشرته ﷺ

إن من كمال خلق المرء حسن صحبته ومعاشرته لأهله، وكمال أدبه في مخالطته لغيره، وقد كان الحبيب ﷺ مضرب المثل في حسن الصحبة وجميل المعاشرة وأدب المخالطة وفيما نعرضه من مواقف له ﷺ في هذا الشأن كفاية لمن أراد الائتساء به ﷺ في كمالاته الروحية والخلقية والأدبية:

وصف عليّ رضي الله عنه له ﷺ في قوله: كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة.

فأي كمال أعظم من هذا الكمال المحمدي في أدبه ومخالطته لأصحابه؟

ولنستمع إلى ابن أبي هالة[٤] في وصفه له ﷺ إذ يقول: كان دائم البشر، سهل

(١) السخب والصخب رفع الصوت، والسخاب فاعل ذلك.
(٢) القدوة.
(٣) الصالحة.
(٤) ووصف أبي هالة صحيح كذلك.

الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سخاب ولا فحاش، ولا عيّاب ولا مدّاح يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيسُ منه، وكان ﷺ يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ممن أهداه، ولو كانت كراع شاة ويكافئ عليها.

وفي الحديث الصحيح قال أنس بن مالك: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات فما قال: لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركتُه: لم تركته؟

وصفه عارف به ﷺ فقال: كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم، ويجلسُهم في حجره، ويجيب دعوة الحرّ والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر.

ووصفه عليم به فقال: كان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط مادّا رجليه بين أصحابه حتى لا يضيّق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكنّي[1] أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثُه حتى يتجوز -أي يكثر فيتجاوز الحد- فيقطعه بنهي أي له أو قيام. وكان إذا جلس إليه أحد وهو يصلي خفف صلاته، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

وحسبنا في بيان أدبه ﷺ وحسن عشرته وجميل مخالطته قول ربّه ﷻ فيه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩]. وقد فعل ﷺ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء.

---

(١) أي: يدعوهم لابأسمائهم بل بكناهم كأن يقول: يا أبا الحسن، وأبا حفص، وأبا أميمة مثلاً.

خشية الحبيب ﷺ

إن خشية الله تعالى في السرّ والعلن ثمرة العلم بالله تعالى ربّا وإلهًا ذا جلال وكمال لا حد لهما تقصر الفهوم دون إدراكهما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨]. وقال رسوله ﷺ كما في الصحيح: «**إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**»، فدل هذا على أن الخشية يثمرها العلم الصحيح، العلم بالله ذي الجلال والإكرام، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وبمحابه من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات، وبمكارهه من ذلك كله.

ومن أعلم بالله من رسول الله؟ اللهم لا أحد، ولذا فلا أتقى لله من رسول الله في سائر عباد الله، ولا أكثر طاعة من رسول الله ﷺ، ولا أرغب فيما عند الله من رسول الله ﷺ، ولا أرهب مما لدى الله من رسول الله ﷺ، ولا أشد انقطاعًا وتبتّلا لله من رسول الله ﷺ، وهذه الأحاديث والآثار تقرر ذلك وتؤكده.

(أ) مظاهر خشيته ﷺ:

روى الترمذي وقال حسن غريب، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إني أرى ما ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت[1] السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات[2] تجأرون إلى الله تعالى**».

---

(١) الأطيط: صوت القتب إذا ضغطه ثقل ما عليه من الحمل.
(٢) الطرقات.

لوددت أني شجرة تعضد[١]، فهذا الحديث شاهد حق على خشية رسول الله ﷺ وخوفه من ربّه تعالى، ويؤكد قوله: «**إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية**».

ما حدث به عبد الله بن الشِّخّير حيث قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» رواه أبو داود وغيره بإسنادٍ صحيح.

ما تقدم عن أبي هالة في وصفه ﷺ إذ قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة.

ما صحّ عنه ﷺ من قوله: «**إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**» ووفي رواية «**سبعين مرة**»، فهو دائم الاستغفار، يومًا يستغر سبعين ويومًا يستغفر مائة، وهذا من كمال خشيته وعظيم تقواه لربه ﷻ.

ما حدث به عبد الله بن عمر رضي الله عنهما اذ قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد قوله: «**ربّ اغفر لي وتُب عليّ إنك أنت التواب الرحيم**» مائة مرة.

(ب) مظاهر طول عبادته ﷺ:

* حديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه إذ قال فيه: قام ﷺ حتى انتفخت قدماه فقيل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورا؟**».

* ما حدثت به عائشة رضي الله عنها في قولها: كان عمل النبي ﷺ دِيمة، وأيكم يطيق ما كان يطيق؟ كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وكنت لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

روى أبو داود في سننه بإسناد صححه الألباني عن عوف بن مالك قال: كنت

(١) تقطع: كناية عن تمنيه أن لو لم يكن في هذ الحياة إنساناً حياًا وهذا تمني أبي ذر، وليس قول الرسول ﷺ.

مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصل فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملك والملكوت والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك.

* ما حدثت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة هي آخر سورة المائدة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

* ما صحّ عنه ﷺ من قوله: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

فهذه مظاهر إطالة العبادة، ووطول التبتّل، وبه ائتسى الصالحون من هذه الأمة ففازوا بالقرب والرضا، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زمرتهم، وصلى الله وسلم وبارك على أسوة المؤمنين وقرة عين المحبين محمد الحبيب وعلى آله وصحبه أجمعين.

التواضع المحمدي

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر عالي المقام، شريف الأصل والمحتد وهو كذلك، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسماها، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شأوًا لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين.

وباستعرضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة تتجلى هذه الحقيقة ويطمع كل مؤمن يستعرض ما نورده في هذا الباب في أن ينال قدرًا من التواضع ائتساءً بنبيه محمد ﷺ، وهذا ما رجوناه من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين.

مظاهر التواضع المحمدي:

أخبر ﷺ أنه قد خيّر بين أن يكون نبيّا ملكًا، أو نبيا عبدًا فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، وأخبر أن الله تعالى كافأه على اختياره العبودية بأن يكون سيد ولد آدم وأول من تنشقّ عنه الأرض، وأول شافع، فاختياره العبوديةّ على الملوكيّة أكبر مظهر من مظاهر التواضع المحمدي.

* ما عرف به ﷺ وشهد به غير واحد من أصحابه، وأنه كان يركب الحمار ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنّخة فيجيب.

* قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**».

* وفي حجه الذي أهدى فيه مائة بدنة حج على بعير فوقه رحل عليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم.

* ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة ودخلها ظافرًا منتصرًا والجيوش الإسلامية قد دخلتها من كل أبوابها دخل راكبًا على ناقته، وإن لحيته الشريفة تكاد تمسُّ قائم رحله تطامنًا وتواضعًا لله ﷻ، وهو موقف لم يقفه غيره في دنيا البشر قط.

* قوله ﷺ: «**ما ينبغي لعبدٍ أن يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى**».

وروى أبو داود بإسنادٍ صحيح أن رجلاً قال له ﷺ: يا خير البريّة: «**ذاك إبراهيم**».

* ما أخبر به بعض نساءه، وتحدثن وهو أنه ﷺ يكون في بيته في مهنة أهله

يفلّي[١] ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه ويخصف نعله[٢]، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق.

* دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رِعْدة فقال له: «**هون على نفسك فإني لست ملكًا وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد**» رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

* عن سويد بن قيس رضي الله عنه فقال: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل وقال للوازن: «**زن وارجح**» فوثب الوزان إلى يد النبي ﷺ يقبلها فجذب يده وقال: «**هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم**»، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: «**صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله**» رواه الترمذي وأبو داود والنسائي قال الترمذي: حسن صحيح وصححه الألباني.

* إن كل مظهر من هذه المظاهر التي بلغت أحد عشر مظهرًا دالٌ بمفرده على كماله ﷺ ثم تواضعه، وأنه مضرب المثل في ذلك، ولما كان كماله لا يدانى فيه فتواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته، وغير مانع محاولة الائتساء به؛ لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة، وبقدر صدق النية والرغبة الصادقة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التي هي موضع الائتساء به ﷺ.

المزاح المحمدي

إن المزاح كالمداعبة والملاعبة والهزل الذي هو خلاف الجدّ يقال هزل في قوله أو فعله، أو مزح، أو داعب الكل بمعنى واحد، والسؤال: هل كان رسول الله ﷺ

(١) أي: ينقيه من القمل إن كان به.
(٢) يلصق بعضه ببعض إذا تقطع ويخرزه ليلصق ولا ينحلّ.

على جلال قدره وسموّ مكانته، وانشغال باله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح؟ والجواب: نعم كان يمزح ويداعب ويهزل بقلة لاستيعاب الجدّ وقته كله إلا أنه كان في مُزاحه ومداعبته وهزله لا يخرج أبدًا عن دائرة الحق، وبحال من الأحوال وهو في مزاحه ومداعبته يقدم معروفًا لأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور وعلى أطفالهم إذا داعبهم من الفرح والمرح والسرور والحبور.

وباستعراضنا للمواقف النبوية الآتية تتجلّى لنا الحقيقة وهي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقًا، وفي الإمكان الائتساء به في ذلك؛ لأنه من المقدور المستطاع وليس من خصائصه ﷺ بل هو أدبٌ عام يأخذ به كل مؤمن قدر عليه.

* حدّث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمله (أي طلب منه أن يحمله على بعير ونحوه)، فقال له ﷺ: «**إنا حاملوك على ولد الناقة**» فقال الرجل: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تلد الإبل إلا النوق؟**» رواه الترمذي وأبو داود وصححه الألباني، فكان قوله هذا مداعبة للرجل ومزحًا معه وهو حق لا باطل فيه.

* وحدث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «**يا ذا الأذنين**» رواه أبوداود والترمذي وصححه الألباني، وهي مداعبة ظاهرة وهي حق واضح، إذ كل إنسان ذو أذنين اثنتين.

* وروى البخاري رحمه الله أن رجلاً كان يقال له عبد الله ويلقّب بحمارٍ وكان مضحك النبي ﷺ، وكان يؤتى به في الشراب -أي السكر- ليقام عليه الحد، فجيء به يومًا فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**». فقوله وكان يضحك النبي ﷺ دليل على أنه كان يمازحه حتى يضحك، والمزاح يكون بين اثنين فكل واحد يمازح الثاني.

* وفي الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: كان للنبي ﷺ حادٍ

يحدو بنسائه يقال له أنْجشة فحدا فأعنقت الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير**» أي: بالنساء، فإطلاق القوارير على النساء مداعبة ظاهرة ووصفهن بالقوارير لضعفهنّ، فلو سقطت إحداهن من هودجها تكسرّت، ولو كنّ غير أمهات المؤمنين لصح أن يقال: إن الحداء -وهو صوت الحادي الرقيق- قد يوجد في نفس المرأة أثرًا غير صالح.

الفصاحة المحمدية

* نترك صاحب الشفا يصف لنا فصاحة الحبيب ﷺ فيقول: تحت «فصل» وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهد سلامة طبع، وبراعة[١] منزع، وإيجاز[٢] مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلفٍ، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها، ويُبارِيها في منزع بلاغتها، حتى كان من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله.

* ومما اختص به وتفوّق فيه فلا يدانيه فيه غيره، ولا يساميه فيه سواه أنه ﷺ يتكلم مع كل قومٍ بلهجتهم وفصاحة لسانه، وبلاغة كلامهم، فكلامه مع قريش والأنصار وأهلِ الحجاز ونجد ليس هو ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطفهة[٣] النهدي، وقطن بن حارثة العُلَيْمِيّ والأشعث[٤] بن قيس، ووائل بن

(١) براعة منزع: أي هو ذو تفوق في قوم هم أفصح الناس.
(٢) إيجاز مقطع: أي هو ذو إيجاز في قوله: وفصل في كلامه مع قلة الألفاظ وتحديد المعنى وتوضيحه.
(٣) هو خطيب نهد ووافِدُها عام الوفود وهو سنة تسع.
(٤) وقدموا اليمن في ستين راكبا فأسلموا كلهم ورجعوا إلى اليمن.

حجر الكندي وغيرهم من أقيال[١] حضر موت وملوك اليمن.

وهذه نماذج من كلامه ﷺ يخاطب كل قوم بلهجتهم، وفصاحتهم في كلامهم ويتفوق عليهم، وقد حلّق في سماء البلاغة والبيان، ونثر الدر من كلامه الجامع للحكم المشتمل على فنون الهداية وضروب البيان، وهذه نماذج منه:

قوله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويِسْعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم**» أخرجه أحمد وابن ماجة وصححه الألباني.

* أقواله ﷺ: «**الناس كأسنان المشط**»، و«**المرء مع من أحب**» متفق عليه.

* «**ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له**».

* «**الناس معادن**» متفق عليه.

* «**المستشار مؤتمن**» أخرجه الترمذي وصححه الألباني.

* «**أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين**» متفق عليه.

* «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا الموطأون[٢] أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون**».

* «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلقٍ حسن**» رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وخلاصة القول أن فصاحة الرسول ﷺ لا عجب فيها ولا غرابة ما دام مضريًّا قرشيًّا هاشميًّا، خصه ربّه بالعناية في التأديب والتربية، وهيأه للوحي، وحمّله البلاغ والبيان فﷺ ما نطق ناطق وأبان من كل مخلوق من إنسٍ وجان.

---

(١) جمع قيل بمعنى الملك.

(٢) «الموطأ» الكنف أي: الجانب من فيه لين ورفق.

الرحمة المحمدية

إن الرحمة المحمدية التي أودعها الله تعالى قلب نبيّه وصفيه وخليله من عباده محمد ﷺ رحمة عامة لسائر الخلق قال تعالى فيها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبيَاء: ١٠٧]، ورحمة خاصة قال تعالى فيها: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التّوبَة: ١٢٨] وللرحمة في القلب مظاهر في الحياة تتجلّى فيها وهذه بعض مظاهر تلك الرحمة المحمدية.

(أ) الرحمة العامة:

قوله ﷺ: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**» مظهر من مظاهر الرحمة العامة أيضًا.

وقوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت فلا هي أطعمتها حين حبستها ولا تركتها تأكل من خشاش[1] الأرض**».

(ب) مظاهر الرحمة الخاصة:

قوله ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة**»، هذا مظهر من مظاهر الرحمة والشفقة المحمدية على أمته ﷺ، وهو من مظاهر الرحمة الخاصة.

قوله ﷺ: «**لا يبلغني أحدٌ منكم عن أحدٍ من أصحابي شيئًا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**».

هذه من رحمته وشفقته على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وهي من مظاهر الرحمة الخاصة.

---

(١) ما يخش فيها ويدخل من حشرات من غيرها كالفئران ونحوها.

* فصلى الله عليه من نبيّ رءوف رحيم، وحقًّا إنه الرحمة المهداة والنّعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة والرحمة المرساة، فويل لمن عاداه وما والاه، وويلٌ لمن عصاه وآذاه، وويل لمن كفر به أو كذبه في الممات والمحياة.

الوفاء المحمدي

* إن الوفاء بالعهد، وعدم نسيانه أو الإغضاء عن واجبه خلقٌ كريم، ولذا كان رسول الله ﷺ فيه بالمحل الأفضل والمقام الأسمى، والمكان الأشرف، فوفاؤه، وصلته لأرحامه كان مضرب المثل، وحق له ذلك وهو سيد الأوفياء والأولياء والأوصياء والأنبياء من بني آدم.

والمظاهر التالية تقرر هذه الحقيقة وتؤكدها:

(أ) وفاؤه:

* روى البخاري في الأدب المفرد عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا أتي بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة**». أي وفاء هذا يا عباد الله؟! إنه يكرم أحباء خديجة وصديقاتها بعد موتها رضي الله عنها.

* وحدّثتْ عائشة رضي الله عنها فقالت: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيُهديها إلى خلائلها، واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت، قال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**».

* وهكذا يتجلى خلق الوفاء في الحبيب ﷺ، فلم ينس بوفائه من مات فضلاً عمن هو حيّ ويهاب لومه أو عتابه.

(ب) صلته لرحمه:

صلة الرحم واجبة، ومن أقدر الناس على القيام بالواجب من رسول الله؟ اللهم إنه لا أحد ومع هذا نذكر نموذجين أو ثلاثة لما كان عليه ﷺ من صلة أرحامه، ليقتدى به في ذلك.

قوله ﷺ في أبي العاص بن أميّة وكان مشركًا ظالمًا في أول أمره ثم أسلم وحسن إسلامه قال فيه وهو مشرك: «**إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي غير أن لهم رحمًا سأبلها ببلالها**» أي: أصلها بصلتها الواجبة لها.

حدث أبو الطفيل قال: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه فبسط لها رداءه فجلست عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

صِلاته ﷺ بأمامة بنت زينب ابنته رضي الله عنها إذ كان يحملها على عاتقه وهو يصلي فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها على عاتقه، فهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم، كالذي قبله في بسطه رداءه لمن أرضعته.

كان ﷺ يبعث إلى ثُويْبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة، فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها؟ فقيل لا أحد، ولو قيل: بقي فلان أو فلانة لوصلهما قيامًا بواجب صلة الأرحام، ولو بعدوا، ولو كانوا لمجرد رضاع بلا أرحام فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم

إن الحقوق الواجبة للنبي ﷺ على كل فردٍ من أفراد هذه الأمة المسلمة عشرة وهي كالآتي:

الإيمان به، محبته، طاعته، متابعته، الاقتداء به، توقيره، تعظيم شأنه، وجوب

النصح له، محبة آل بيته، محبة أصحابه، الصلاة عليه ﷺ.

وهذا بيان أدلة وجوبها، وشرح معانيها، وعرض مظاهرها في الحياة.

(أ) الإيمان به ﷺ:

إن الإيمان به ﷺ مستلزم للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، قال تعالى في الأمر به الواجب القيام به ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وقال عز من قائل: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال هو ﷺ في الإخبار بوجوب الإيمان به: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**»، وقال في حديث آخر له في موقف آخر: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**».

ومعنى الإيمان به ﷺ التصديق بنبوّته ورسالته التي جاء بها من عند الله تعالى، وأن كل ما جاء به من الدين، وما أخبر به عن الله تعالى هو حق وصدق، ولا يكتفي بالنطق باللسان، والقلب منكر لذلك غير مصدق به، بل لابد من مطابقة القلب للسان.

ومن مظاهر الإيمان به ﷺ طاعته ومحبته وموالاته وباقي الحقوق العشرة.

(ب) محبته ﷺ:

إن محبته ﷺ واجبة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فهذه الآية دليل واضح على وجوب محبته ﷺ لما فيها من التهديد الشديد على من آثر على حب الله ورسوله حب غيرهما من الأهل والمال والولد.

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

وما سمع عمر رضي الله عنه هذا الحديث قال للرسول ﷺ: لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبيّ، فقال له النبي ﷺ: «**لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه**»، فقال عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي فأجابه الرسول قائلا: «**الآن يا عمر**»، أي: بلغت حقيقة الإيمان.

وقال ﷺ: «**ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**».

ومعنى محبته ﷺ: إيثار ما يحب ﷺ على ما يحب العبد.

مظاهر محبته ﷺ:

ومن مظاهر محبته ﷺ ما يلي:

١- طاعته، والاقتداء به، ومحبة ما جاء به ودعا إليه، ونصرته في دينه ونصرة المؤمنين به من آل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢- توقيره وتعظيمه عند ذكره وذكر شمائله، وعند الوقوف على قبره للسلام عليه وعلى صاحبيه، وعند الجلوس في مسجده والصلاة فيه، وذلك بخفض الصوت، وغض البصر، وعدم ارتكاب أيّ حدث فيه من قولٍ أو عملٍ، وعدم إقراره أو الرضا به.

علامات حبه ﷺ:

من علامات حبه ﷺ:

١- كثرة ذكره فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

٢- كثرة الشوق إليه إذ كل محب يحب لقاء حبيبه ويتشوق إلى لقائه.

٣- البكاء عند ذكره شوقًا وحنينًا إليه ﷺ.

(ج) طاعته ﷺ:

إن طاعته ﷺ واجبة بأمر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمَّد: ٣٣] ، وبقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: ٦٤]، ويدل على عظم شأن طاعته ﷺ قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّساء: ٨٠] ، وقوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجنّ: ٢٣] ، وقوله: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ [النُّور: ٥٤] .

ومعنى طاعته ﷺ: فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه من اعتقاد أو قول أو عمل، إذا كان الأمر للوجوب والنهي للتحريم، فإن كان الأمر للندب، والاستحباب والنهي للتنزيه فلا معصية في الفعل ولا في الترك.

مظاهر طاعته ﷺ:

من طاعته ﷺ:

١- التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، وذلك كالمحافظة على رغيبة الفجر وسنة الوتر والرواتب مع الفرائض، والمحافظة على صلاة الجماعة والرغبة في الصف الأول والذي يليه، ونافلة الضحى، والصلاة بعد الوضوء، وترك الصلاة في الأوقات المنهي عنه الصلاة فيها.

٢- الالتزام بحسن السمت وخفض الصوت، ونظافة الثوب والجسم، وتحري الصدق في القول والعمل.

٣- طلب الحلال في الطعام والشراب واللباس والنكاح.

٤- حب المساكين والإحسان إليهم، وزيارة القبور للترحم عليهم. والاستغفار لهم والتذكر بحالهم.

٥- الالتزام بمبدأ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] وبمبدأ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» رواه مسلم.

(د) متابعته ﷺ:

إن متابعته ﷺ في المعتقد والقول والعمل واجبة وهي الدين كله، ومخالفته في ذلك هي الخروج من الدين كله؛ إذ قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فمتابعته ﷺ سبيل الهداية، وتركها سبيل الغواية، وقد اشترط تعالى لحبه العبد أن يتابع العبد رسوله في كل ما جاء به قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومعنى المتابعة للرسول ﷺ أن يكون اعتقاد العبد وقولُه وعملُه تابعًا لاعتقاد رسول الله ﷺ وعمله، فلا يخالفه في شيء من ذلك، بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان.

ومن مظاهر المتابعة له ﷺ ما يلي:

١- أن لا يبدع المسلم بدعة، وأن لا يعمل ببدعة ابتدعها غيره مها كان هذا المبتدع إلا أن يكون أحد الخلفاء الراشدين الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا رضي الله عنهم أجمعين، وذلك لقوله ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من**

بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

٢- رد كل قول لقوله، وترك كل تشريع يخالف شرعه، والإعراض عن كل ما خالف هديه في الاعتقاد والقول والعمل، والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه ﷺ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال: «**فما بال أقوام يتنزهون عن شيءٍ أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

٣- التمسك بالسنة الواجبة والمستحبة على حدٍ سواء.

فضل المتابعة:

وفي بيان فضل المتابعة نورد الحديث الآتي:

قوله ﷺ: «**إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتي ستفترق على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**الذي أنا عليه اليوم وأصحابي**»، رواه الترمذي وابن ماجة بألفاظٍ مختلفة، والحديث دليل على فضل المتابعة للرسول ﷺ وأصحابه في العقيدة والعبادة والسلوك؛ إذ خلاف ذلك يفضي بالعبد إلى النار.

(هـ) الاقتداء به ﷺ:

لقد أمر تعالى رسوله بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل فقال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وأمرنا تعالى نحن أيها المسلمون بالاقتداء به ﷺ فقد قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: قدوة صالحة فاقتدو به. ورتب تعالى هدايتنا على طاعته والاقتداء به فقال ﷻ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ

وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النُّور: ٥٤] . ولازم هذا أن ترك الاقتداء به ﷺ مفض بصاحبه إلى الضلال الموجب للهلاك في الحياتين، وهو كذلك، فهم هذا سلف هذه الأمة فالتزموا بطاعته ﷺ ومتابعته والاقتداء به.

وهذه مظاهر تلك المتابعة وذلك الاقتداء:

* صلى عمر بن الخطاب فكأنما قيل له في ذلك فقال: أنا أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

* قرن عليّ بين الحج والعمرة على عهد عثمان رضي الله عنهما فقال له عثمان ترى أني أنهي الناس عنه وتفعله!! فقال عليّ: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس.

* وقال مرة: ألا إني لست بنبيّ، ولا يوحى إلي ولكني أعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

* وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، يريد أن المتابعة للنبي ﷺ، وإن اقتصد العبد في العمل الصالح ولم يكثر منه خير من عمل كثير في غير متابعة للرسول ﷺ.

* وكان أبيّ بن كعب رضي الله عنه يقول: إن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة، وموافقة بدعة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهادًا واقتصادًا أن يكون على منهج الأنبياء وسنتهم.

* روى أحمد أن ابن عمر رضي الله عنهما رؤي يدير ناقته في مكان فسئل عنه فقال: لا أدري إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته.

* وقال أبو عثمان الحيري: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

* والمقصود من هذا كله أن الاقتداء بالرسول ﷺ واجب فعله محققّ للنجاة من الهلاك وتركه مقتض له والعياذ بالله تعالى، الخير كل الخير في اتباعه ﷺ والاقتداء به في الصغير والكبير، والقليل والكثير، وفي كل الأحوال. وسائر الظروف.

(و) توقيره ﷺ:

* إن توقير النبي ﷺ واجب أكيد، إذ خلافه وهو الاستخفاف به ﷺ ما هو من الكفر ببعيد، بل هو كفر عتيد، أمر تعالى بتوقير نبيه ﷺ في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾.

فالتعزير النصرة والتوقير للتعظيم والإجلال وهذه له ﷺ، والتسبيح لله ﷻ وهو تنزيهه تعالى عن النقائص والشريك والشبيه والنظير والصاحبة والولد.

* فما أرسل الله تعالى رسوله مبشرًا ونذيرًا إلا ليؤمن الناس به تعالى وبرسوله ويعزروا الرسول -أي ينصروه- ويوقروه -أي يجلوه- ويعظموه بما يليق بمنصبه الرفيع ومقامه السامي الشريف.

* ومعنى توقيره ﷺ تعظيمه وإجلاله والإكبار من شأنه والرفع من قدره حتى لا يدانيه أحد من الناس. وكون أصحابه قد عرفوا قدره فأجلوه وعزروه ووقروه فليس ذلك عائدًا لكونه فيهم وبينهم فحسب بل هو لما أوجبه الله تعالى عليهم، وأفاضه في نفوسهم وأجراه على ألسنتهم من حبه وتقديره وإجلاله وتعظيمه.

ومن مظاهر توقيره ﷺ ما أمر الله تعالى به وأرشد إليه في كتابه العزيز كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحُجرَات: ١] أي: لا تقولوا قبل أن يقول، واذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، فلا يحل لأحدهم أن يسبق بقوله قوله، ولا برأيه رأيه، ولا بقضائه قضائه بل عليهم أن يكونوا تابعين له في كل ذلك، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ

لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحُجرَات: ٢]، فقد منعهم في هذا الخطاب من رفع أصواتهم فوق صوته لمنافاة ذلك للأدب معه والوقار له، كما منعهم من الجهر بالقول له إذا خاطبوه وكلموه لما في ذلك من سوء الأدب والجفاء والغلظة المنافية للإجلال والتوقير والتعظيم، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النُّور: ٦٣] ، فقد نهاهم عن ندائه باسمه العلم: يا محمد، وأرشدهم أن يدعوه بلقب النبوة والرسالة نحو يا نبيّ الله، ويا رسول الله، وبأحب كناه إليه نحو يا أبا القاسم، واستجاب أصحابه البررة لأمر الله تعالى فقال أبو بكر الصديق: والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار[1]، وفعلاً لما نزلت هذه الآية كان عمر إذا حدثه حدثه كأخي السرار فما كان يسمع الرسول حتى يستفهم، ليبين مراده من كلامه، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحُجرَات: ٣] .

مظاهر توقيره:

ومن مظاهر توقير الأصحاب رضوان الله عليهم لنبيهم ﷺ ما يلي:

* حدث عمرو بن العاص يومًا فقال: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه.

* قال عروة بن مسعود حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية ورأى من تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضُوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا ولا يتنخّم نُخامة إلا تلقوها

(١) أي: كلامًا خفيًا كالمسارة التي لا يسمعها غير من ساره بها من الحاضرين.

بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرةٌ إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون إليه النظر تعظيمًا له، فما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا من قوم قط مثل محمد في أصحابه، فهذا الذي حكاه عروة بن مسعود رضي الله عنه وهو حق ثابت أكبر مظهر من مظاهر توقير أصحاب رسول الله ﷺ لنبيّهم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

(ز) تعظيم شأنه ﷺ:

* إن المراد من تعظيم شأن النبي ﷺ: احترام وإكبار كل ما له تعلق به ﷺ كاسمه وحديثه، وسنته، وشريعته، وآل بيته، وصحابته، وأفراد أمته، ومسجده وقبره، وكل ماله اتصال به من قريبٍ أو بعيد؛ إذ كل هذا داخل تحت وجوب توقيره وحبه وتعظيمه ما هو مندرج تحت حرمات الله، والله يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحَجّ: ٣٠]، ويدل لذلك ويشهد له أن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته، وأمر بخفضه بين يديه، ولم يأذن بأن يدعى كما يدعى غيره، وذلك لما له من الفضل والتفوق على سائر الناس.

ولنستعرض الآن مواقف الصحابة والتابعين في هذا الشأن لنزداد يقينًا بوجوب تعظيم شأنه ﷺ كله، وهذه مظاهر ذلك:

مظاهر تعظيم حديثه:

* روي عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ، يرى أنه يجب له الإنصات عند قراءة حديثه كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ.

* ما روي عن جعفر بن محمد الصادق، وكان كثير الدعابة والتبسّم أنه إذا ذكر

عنده النبي ﷺ اصفرّ وجهه، وما رُئي يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة.

ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه إذا حدث فقال: قال رسول الله ﷺ علاه كرب: وتحدّر العرق من جبينه رضي الله عنه وأرضاه.

مرّ مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله مرّ على أبي حازم وهو يحدث فجازه ولم يقف عنده، وعلل لذلك بقوله: إني لم أر موضعًا أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم، وكان -رحمه الله تعالى- إذا أراد أن يحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه، ثم خرج فحدث.

مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ:

* إن تعظيم أصحابه ﷺ من تعظيمه -فداه أبي وأمي- إذ لولا صحبتهم له ما عظموا هذا التعظيم الخاص دون غيرهم من سائرالناس.

ومن مظاهر تعظيمهم ما يلي:

* قول مالك بن أنس -رحمه الله تعالى-: من غاظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر لقول الله تعالى فيهم: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفَتْح: ٢٩].

* قول عبد الله بن المبارك خصلتان من كانتا فيه نجا، الصدق وحب أصحاب محمدٍ ﷺ.

* قول أبي أيوب السّختياني: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب عليًا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمدٍ ﷺ بريء من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا.

(حـ) وجوب النصح له ﷺ:

إن لوجوب النصح له ﷺ أدلة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التّوبَة: ٩١]، فذكر النصح لرسوله وأنه نافعٌ لصاحبه رافعٌ عنه الحرج ما دام ناصحًا لله ولرسوله غير غاشٍ ولا خادع بهما.

ومثل قول الرسول ﷺ: «**الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله**» فجعل النصح له دينًا.

معنى النصح: أنه إرادة الخير للمنصوح له، ولا يتم هذا إلا بعد تخليص النفس من كل الشوائب حتى تصل إلى درجة تريد فيها الخير كاملاً لمن تريده له.

والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بأمور هي مظاهر لها وهي:

١- التصديق بنبوّته المثمر لطاعته في أمره ونهيه، ومؤازرته ونصرته، وحمايته حيًا وميتًا وإحياء سنته بتعليمها بعد العمل بها، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ﷺ.

٢- شدة المحبة له ولأهل بيته، وكافة أصحابه، وموالاة من يواليه ويوالي أهل بيته وأصحابه في صدق، ومعاداة من يعاديه ويعادي أهل بيته وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

٣- إبلاغ رسالته بعده ونشر دعوته وإقامة شريعته، وإعزاز أهل ملته وإذلال أهل بغضته وعداوته من الكافرين بدينه والكائدين لأمته وملّته.

(ط) محبة أهل بيته وصحابته:

إن محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه من محبته ﷺ، وما دامت محبته واجبة فمحبة ما يجب واجب أكيد أيضًا، وعليه فما أحب رسول الله ﷺ من لم

يحب أهل بيته وأصحابه، إذ كان ﷺ يحبهم.

* قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ارقبوا محمدًا في أهل بيته.

* وقال: عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحسن بن حسين: إذا كانت لك حاجة فأرسل إليّ، أو اكتب فإني أستحي من الله أن يراك الله على بابي. فهذا تعظيم، وأي تعظيم من عمر لأهل بيت رسول الله ﷺ.

* وقال: عمر لابنه عبد الله لما أعطى أسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة وأعطى ولده عبد الله ثلاث آلاف فقال له: فلم فضّلته عليّ؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، قال: لأن زيدًا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك فآثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبّي!!

* كانت تلك الأخبار الموجبة لحب أهل بيت رسول الله ﷺ. وأما أصحابه رضوان الله عليهم ففي كتاب الله ما يوجب حبهم وتقديرهم والترضي عنهم، وما يحرم انتقاصهم، الطعن فيهم، والنيل من كرامتهم، فقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفَتْح: ١٨]، فهل يرضى الله عن عبده ويجوز السخط عليه من قبل عباده؟؟ اللهم لا، لا، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفَتْح: ٢٩] إلى قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، فهل يمدح الله تعالى أقوامًا ويثني عليهم في كتابه ويجوز ذمهم وعدم إجلالهم وتقديرهم؟ اللهم لا، لا.

* قوله ﷺ في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر**».

* قوله ﷺ: «**لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»(١).

---

(١) المد: الحفنة، والنصيف نفصها.

* قول سهل بن عبد الله التستري -رحمه الله تعالى- لم يؤمن بالرسول من لم يوقّر أصحابه، ولم يعزرّ[١] أوامره.

* قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

* قوله وقول غيره أيضًا: من أبغض أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم لا حقّ له في فيء المسلمين لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر:٦] إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]، فالذين في قلوبهم غلّ على أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في الفيء، إذ يخرجون بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر، وهذا فقه عظيم، وفهم لكتاب الله كبير سديد.

(ي) الصلاة عليه ﷺ:

* هذا آخر الحقوق العشرة الواجبة لرسول الله ﷺ صاحب هذه السيرة العطرة، الواجبة له على كل مؤمن ومؤمنة، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ.

إن هذا الحق الواجب الأكيد ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال رسول الله ﷺ: «**رغم أنف امريء ذكرت عنده فلم يصلِ عليّ**» وقال: «**صلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني**»، وقال له أصحابه رضي الله عنهم أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**». فالصلاة عليه ﷺ واجبة في الجملة وتتأكد عند ذكره ﷺ، وفي التشهد

(١) فينصرها ويوقويها ويجلّها ويعظمها.

الأخير من كل صلاة، وجاء في فضلها قوله ﷺ: «**من صلى علي مرة صلى الله عليه بها عشرة**». وقوله: «**إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا علي أي قولوا: اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، ثم سلوا إلي الوسيلة والفضيلة أي قولوا: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، فإن من فعل ذلك حلت له شفاعتي يوم القيامة**».

المواطن التي تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ:

إن هناك مواطن كثيرة تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ نجملها إزاء النقاط الآتية:

* يوم الجمعة وليلتها، إذ روى النسائي بسنده أن النبي ﷺ أمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، وورد ليلتها أيضًا.

* عند سماع ذكره أو كتابته لحديث: «**رغم أنف امريء ذكرت عنده ولم يصل عليّ**».

* عند دخول المسجد بأن يقول: بسم الله والحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب رحتمك، وعند الخروج كذلك إلا أنه يقول: وافتح لي أبواب فضلك بدل رحمتك.

* وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائز، إذ الأولى يقرأ بعد الفاتحة، والثانية يصلي بعدها على النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية وهي التي يصلي بها في التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة.

صيغ الصلاة على النبي ﷺ:

لقد ورد في الصلاة على النبي ﷺ صيغ كثيرة بعضها مرفوع إلى النبي ﷺ، وبعضها مأثور عن السلف الصالح، وبعضها محدث مبتدع[1]، ونظرًا لذلك فإنا نكتفي بذكر أعلى الصلاة وذكر أدناها، فأعلى الصلاة وأفضلها على الإطلاق الصلاة الإبراهيمية التي علمها رسول الله ﷺ أصحابه ما تقدم قريبًا إذ قال لهم: «**قولوا اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمدٍ وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»، وأدنى الصلاة عليه ﷺ: اللهم صل على محمد وسلم تسليمًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦]

فاللهم صل علي محمدٍ عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

بها يطيب السمر ويحلو الحديث ويحلّ الأنس وتحصل البركة وتنزل السكينة، وهي علامة الحب وشاهد المتابعة وبرهان الموالاة ودليل الصلاح وطريق الفلاح، يقول ﷺ: «**من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشر صلوات، ورفعه عشر درجات، وكتبت له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات**» أخرجه النسائي في الكبرى وفي عمل اليوم والليلة عن أنس بن مالك.

(١) من تلك الصلوات المحدثة صلاة الفاتح عند الطائفة التيجانية.

وقال: «**أكثروا عليّ من الصلاة ليلة الجمعة ويوم الجمعة**» أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ١٠٢) والبيهقي في الكبرى (٥٧٩٠) وفي الشعب (٣٠٣٠) عن أنس بن مالك وانظر كشف الخفاء (١/ ١٩٠).

وقال: «**رغم أنف من ذكرت عنده ولم يصلّ عليّ**» أخرجه أحمد (٧٤٠٢) والترمذي (٣٥٤٥) والحاكم (٢٠١٦). وروي مرفوعا: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ» أخرجه أحمد (١٧٣٨) والترمذي (٣٥٤٦) عن علي ﷺ. وانظر كشف الخفاء (١/ ٣٣٢).

وورد: «**إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغونني من أمتي السلام**» أخرجه أحمد [٣٦٥٧، ٤١٩٨] والنسائي ١٢٨٢ والدارمي ٢٧٧٤ والحاكم ٣٥٧٦ عن عبد الله بن مسعود.

ولما قال أبيّ بن كعب: سوف أجعل لك صلاتي كلها، أي دعائي، قال: «إذن يغفر ذنبك، وتكفي همّك» أخرجه الترمذي (٢٤٥٧).

فيصلى عليه ﷺ في التشهد الأول والثاني، وعند ذكره، وفي خطبة الجمعة، والعيد، والاستسقاء، وفي خطبة النكاح، وفي مجلس العلم والمواعظ، والكتب والرسائل، والمعاهدات، والصكوك، وعند لقاء الأحباب، وعند الوداع، وفي الدعاء وأذكار الصباح والمساء، وعند نزول الهموم وترادف الغموم وفقد الأغراض وتزاحم الكرب وحدوث المصاب ووصول المبشرات، وعند تأليف الكتب وشرح حديثه وكتابة سيرته وذكر أخباره وقصصه.. إلى غير ذلك من المناسبات، فﷺ ما زهر فاح، وبلبل صاح، وسر باح، وحمام ناح، وﷺ ما نسيم تدّفق وما دمع ترقرق، وما وجه أشرق، وﷺ ما اختلف الليل والنهار، وهطلت الأمطار، ودنت الثمار واهتزت الأشجار، وﷺ ما بدت النجوم، وتلبدّت الغيوم وانقشعت الهموم، وتليت الأخبار والعلوم، وعلى آله الطيبين الأبرار، وأصحابه

الأخيار من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم واقتفى الك الآثار.

وجوب التأدب مع الرسول ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحُجرَات: ٢].

قحطان عدنان شادوا منك عزّتهم ... بك التشرّف للتأريخ لا بهم

أكاد أقتلع الآهات من حرقي ... إذا ذكرتك أو أرتاع من ندمي

الأدب معه ﷺ شريعة يثاب فاعلها ويعاقب تاركها، فالأدب مع شخصه الكريم بإجلاله وإعزازه وتوقيره وتقديره واحترامه وانزاله المنزلة التي أنزله الله إياها: لا غلوّ ولا جفاء، وعدم الاعتراض عليه ﷺ أو مناقضة أقواله بأقوال غيره من الناس، أو تقديم قول كائن من البشر مهما كان على قوله، أو أخذ حديثه على أنه كلام يصيب ويخطئ، بل هو كلام نبيّ معصوم، أو التعرّض لصفة من صفاته بجفاء، أو رد قوله بعد التأكد من صحة نسبته اليه، أو الشك في بعض قضاياه وأحكامه، أو مقارنته بالقادة والزعماء والملوك، فقد رفع الله قدره على الجميع وأعلى منزلته على الكل.

بل يحرم كل ما فهم منه الجفاء والتنقص والاعتراض عليه ﷺ، والواجب على كل من رضي به رسولا واتبعه وآمن به حبه حبا صادقا أعظم من حب النفس والولد والوالد والناس أجمعين، وتصديق ما أخبر به، وامتثال ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، والاهتداء بهداه والاقتداء بسنته والرضى بحكمه والحرص على متابعته، وتوقير حديثه والصلاة والسلام عليه إذا ذكر ﷺ، وعدم رفع الصوت عند ذكره وذكر حديثه، وعدم الضحك وقت تلاوة أخباره وكلامه وآثاره، والخشوع عند ذكر شيء من سنته، والتأدب عند الاستشهاد بقوله، والتسليم عند أمره ونهيه، والإيمان بمعجزاته والذب عن جنابه الشريف وأهل بيته وأصحابه

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

يا من تضوّع طيب القاع منزله ... فطاب من طيب ذاك القاع والأكم

نفسي الفداء لمجدٍ أنت حامله ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

فعلى المسلم أن يفعل فعل أصحاب محمد ﷺ

في التأدب معه

أصول دينه ودعوته ﷺ

لم يكن من قبيل الصدفة أو الاتفاق أن يختم الله الديانات السماوية بالإسلام، وأن يجعل نبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه آخر لبنةٍ في بيت النبوة العتيد فيتم بناؤه ويبلغ تمامه.

بل إن ذلك أمرٌ اقتضته طبيعة الإسلام نفسه فهو دينٌ لم ينزل لإصلاحٍ مؤقت أو لهداية أمةٍ مخصوصةٍ من الناس، حتى يكون بقاؤه رهنًا بهذا العصر من الزمان، أو هذه الأمة من البشر، وإنما هو دينٌ بلغ من العموم والإطلاق الدرجة التي جعلته فوق اعتبارات الزمان والمكان جميعًا.

فالإسلام هو: النظام الإلهي الكامل الذي لا يمكن للإنسانية في سعيها المتصل لبلوغ الكمال الإنساني أن تجد أرقى منه، أو ما يدانيه في جميع مجالات الرقي عقليًا كان أم نفسيًا، خلقيًا كان أم عاطفيًا، روحيًا كان أم ماديًا، فرديًا كان أم جماعيًا.

وحينئذٍ فلا يكون هناك مجالٌ لرسالةٍ إلهيةٍ أخرى، أو لرسولٍ جديد، فإنه لن يستطيع أن يضيف إلى كمال الإسلام كمالاتٍ أخرى لم يأت بها الإسلام، بل كل

كمالٍ إنساني ممكن فقد جاء به الإسلام، ولا يظنن ظان أننا نقول ذلك تعصبًا منا لديننا أو حميةً له، بل إن ذلك هو الحق الذي شهدت له به الأعداء الذين لم يستطيعوا رغم كيدهم للإسلام وافتنانهم في النيل منه أن ينقضوا جزئيةً واحدةً مما قرره ودعا إليه.

وإليك أيها القارئ الكريم بعض الأسس والمبادئ التي قامت عليها دعوة الإسلام، وسترى إن تأملتها جيدًا صدق ما قدمناه لك من روح العموم والإطلاق التي تسود المنهج الإسلامي كله، وستدرك أيضًا إذا سلم عقلك من الهوى والتعصب أن النظام الذي يقوم على مثل هذه الأسس والمبادئ لابد أن يكون أرقى نموذج للحياة البشرية، وأعلى مثل يمكن أن يبلغه التطور البشري في سعيه الدائب نحو الكمال.

لا شك أن سلامة العقيدة ووضوحها وبعدها عن إغراق الوهم، وجموع الخيال وتحكم الأهواء، هو الهدف الأكبر الذي يسعى إليه العقل في تفكيره الدائب للوصول إلى الحقيقة.

والعقيدة التي جاء بها الإسلام في قوتها وبساطتها وسلامتها من الشطط والانحراف، وارتكازها على أسسٍ ثابتةٍ من الفطرة الإنسانية العامة، والمنطق العقلي المستقيم، والنصوص الدينية الصريحة، بحيث لا يمكن لعقول كل المفكرين والفلاسفة أن ينقضوا أصلاً واحدًا من أصولها.

فهي عقيدةٌ تقوم أولاً وأساسًا على الإيمان بالله ربًا واحدًا له الربوبية المطلقة على الأشياء كلها، خلقًا وملكًا وتدبيرًا ورعايةً وحفظًا، لا شركة لأحدٍ معه أصلاً، لا في خلق شيء، ولا في تدبير أمر، وأن خلقه للأشياء تم بقدرته وحدها على وفق علمه ومشيئته دون معينٍ أو وسيط، وأن تدبيره لها كذلك يجري وفق قوانين ثابتةٌ وسننٌ مطردةٌ اقتضتها حكمته، فلا يستطيع أحدٌ لها تحويلاً ولا تبديلاً، وأنه

خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وجعله سيد هذه الكائنات؛ بما منحه من سلطات العقل وقوة الفكرة وسعة الحيلة، والقدرة على اكتشاف المجهول، وجعل الأشياء كلها مسخرةٌ له وطوع إرادته؛ ليستخدمها فيما يعود على أفراده بالخير، وييسر لهم سبل العيش، ويعرج بهم في مدارج الرقي والكمال.

وتقوم على الإيمان به كذلك إلهًا واحدًا، لا تنبغي الإلهية إلا له، فهو الإله المألوه الذي تألهه القلوب، أي: تعبده محبةً ومخافةً وذلاً، وإنابةً واستكانةً، وخضوعًا وتعظيمًا، ورجاءً وخشيةً، وتوكلاً واستعانةً، ورغبةً ورهبةً، وذكرًا وشكرًا ورِضًا وصبرًا، وسؤالاً ودعاءً وقنوتًا وطاعةً إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي يحبها الله ويرضاها، والتي أمر عباده أن يتقربوا إليه بها.

وتقوم هذه العقيدة على الإيمان بأن له وحده الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأنه متصفٌ بجميع الكمالات التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسوله ﷺ اتصافًا حقيقيًا على الوجه الذي يليق به، من غير أن يقتضي ذلك تمثيلاً له بأحدٍ من خلقه فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، مع وجوب تنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق به من صفات النقص التي تضاد كماله، ووجوب تنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد والند والشبيه والنظير.

وتقوم عقيدة الإسلام على الإيمان بملائكة الله على الوجه الذي ورد في الكتاب والسنة، من أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وأن منهم السفراء بينه وبين رسله من البشر يحملون إليهم وحي الله ورسالاته ليقوموا بتبليغها إلى من أرسلوا إليهم من الناس، ومنهم من وُكِّل بالأرزاق والأمطار، ومنهم من وُكل بالنطف التي تصب في الأرحام،

ومنهم من وُكل بقبض الأرواح من الأجساد، ومنهم من وُكِّل بكتابة أعمال العباد من الحسنات والسيئات، إلى آخر ما جاءت به النصوص في شأن هذا العالم الغيبي، الذي لا يحيل العقل وجوده، وهكذا كل ما أخبر به الدين من عوالم الغيب، كالجن والشياطين والجنة والنار وسؤال القبر، ونعيم القبر أو عذابه، مادام قد جاء الخبر الصادق بوجودها بعد أن قام الدليل على صدق المخبر بها، فليس للعقل بعد ذلك مجال لإنكار أو تكذيب.

وتقوم عقيدة الإسلام على الإيمان باليوم الآخر، وما يشتمل عليه من خراب هذه الدنيا وفساد نظامها، وخروج الناس من قبورهم أحياء وحشرهم إلى ربهم، وفصل القضاء بينهم، ومحاسبتهم على كل ما قدموا لأنفسهم، وما كسبته أيديهم من خيرٍ ومن شر.

ولا شك أن الإيمان بالبعث والجزاء مما يقتضيه العقل تحقيقًا لقاعدة العدل، إذ ليس في العقول ولا في الحكمة أن تكون هذه الحياة القصيرة هي الغاية من خلق هذا العالم الكبير، وأن تكون نهاية المؤمن والكافر سواء، ونهاية الظالم والمظلوم سواء، ونهاية البر والفاجر سواء.

والإيمان بالبعث من أسس عقيدة الإسلام، فإذا علم كل إنسانٍ أنه بعد الحياة سيبعث ثم يحاسب انعكس ذلك على نظام العيش في هذه الحياة، واستقامة الأمور، فإذا علم أنه مسئولٌ عما قدم، وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى، سلك في حياته سبيل الجادة وحاسب نفسه بنفسه، فلا يظلم، ولا يصر على ذنبٍ ارتكبه، ولا يقصر في أداء ما وجب عليه، فإن وقع في شيءٍ من ذلك تذكر يوم البعث والحساب فتاب وأناب.

وتقوم عقيدة الإسلام أيضًا على الإيمان بقضاء الله وقدره إيمانًا يحمل إلى النفوس الطمأنينة والرضا، وينفي عنها الهلع والجزع، ويحملها على التسليم لله

فيما قدره، والاعتراف له بقهر الربوبية، لكن من غير أن يتخذ هذا الإيمان بالقدر مطيةً للعجز والكسل، أو تكأةً للتقصير والعصيان، أو حجةً يتعلل بها أهل الكذب والبهتان، فإن القدر إنما يتعزى به عن المصائب والآلام، ولكنه ليس حجةٌ لأهل الفسوق والإجرام، بل هؤلاء عليهم أن يتوبوا ويستغفروا الله لذنوبهم بدلاً من التعلق بالأماني والأحلام.

ومن الأسس التي تقوم عليها عقيدة الإسلام أن الدين كله لله، فهو الذي يتعبد عباده بما يشاء، ويشرع لهم من الأحكام والحدود والفرائض والآداب ما اقتضته حكمته مما يعلم أن فيه صلاحهم وسعادتهم، فلا يجوز لأحدٍ أن يزيد في دين الله ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه، أو يبدل كلماته عن مواضعها، أو يحرفها بتأويلٍ زائغٍ أو يشرع ما لم يأذن به الله.

وتقوم عقيدة هذا الدين الخالد على أن دين الله واحد، وهو الإسلام الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، وأن الأنبياء كلهم أخوة، أصول دينهم واحدة، وشرائعهم شتى، وأن الواجب هو الإيمان بهم وبما أُنزل إليهم جميعًا قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

هذه هي أهم أسس عقيدة الإسلام، فهل ترى فيها ما يجافي الفطرة أو يناقض العقل، أو يصعب على الفهم، أو يتنافى مع مقررات العلم؟

إنها الصراحة والبساطة والقوة التي تفرض نفسها لتزيح فساد العقائد وجور الوثنية وظلمات الإلحاد.

من خصائص دين الإسلام

الإسلام دين الفطرة، ودين السلام والأمان، والبشرية لن تجد الراحة، ولن تحقق السعادة إلا بالأخذ بالإسلام، وتطبيقه في شتى الشؤون.

ومما يؤكد عظمة دين الإسلام، ما يتميز به من خصائص لا توجد في غيره من المذاهب والأديان.

ومن تلك الخصائص التي تثبت تميز الإسلام، ومدى حاجة الناس إليه ما يلي:

١ - **أنه جاء من عند الله**: والله ﷻ أعلم بما يصلح عباده، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

٢- **أنه يبين بداية الإنسان**، ونهايته، والغاية التي خلق من أجلها.

قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النِّساء: ١].

وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: ٥٦].

٣ - **أنه دين الفطرة**: فلا يتنافى معها قال - تعالى -: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠].

٤ - **أنه يعتني بالعقل ويأمر بالتفكر**: ويذم الجهل، والتقليد الأعمى، والغفلة عن التفكير السليم، قال -تعالى-: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ

﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ .

٥ - **الإسلام عقيدة وشريعة**: فهو كامل في عقيدته وشرائعه؛ فليس ديناً فكرياً فحسب، أو خاطرة تمر بالذهن، بل هو كامل في كل شيء، مشتمل على العقائد الصحيحة، والمعاملات الحكيمة، والأخلاق الجميلة، والسلوك المنضبط؛ فهو دين فرد وجماعة، ودين آخرة وأولى.

٦ - **أنه يعتني بالعواطف الإنسانية**: ويوجهها الوجهة الصحيحة التي تجعلها أداة خير وتعمير.

٧ - **أنه دين العدل**: سواء مع العدو، أو الصديق، أو القريب، أو البعيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

٨ - **الإسلام دين الأخوة الصادقة**: فالمسلمون إخوة في الدين، لا تفرقهم البلاد، ولا الجنس، ولا اللون، فلا طبقية في الإسلام، ولا عنصرية، ولا عصبية لجنس أو لون أو عرق، ومعيار التفاضل في الإسلام إنما يكون بالتقوى.

٩ - **الإسلام دين العلم**: فالعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم يرفع صاحبه إلى أعلى الدرجات، قال -تعالى-: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١].

١٠- **أن الله تكفل لمن أخذ بالإسلام وطبقه بالسعادة، والعزة، والنصرة فرداً كان أم جماعة**: قال -تعالى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النُّور: ٥٥].

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

١١ - في الإسلام حل لجميع المشكلات: لاشتمال شريعته وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع.

١٢ - أن شريعته أحكم ما تساس به الأمم: وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح، أو التنازع في الحقوق.

١٣ - الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، وأمة وحال، بل لا تصلح الدنيا بغيره: ولهذا كلما تقدمت العصور، وترقت الأمم ظهر برهان جديد على صحة الإسلام، ورفعة شأنه.

١٤ - الإسلام دين المحبة، والاجتماع، والألفة، والرحمة: قال النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»

وقال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**».

١٥ - الإسلام دين الحزم والجد والعمل: قال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، واحرص على ما ينفعك ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**».

١٦- الإسلام أبعد ما يكون عن التناقض: قال -تعالى-: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النّساء: ٨٢].

١٧- أنه يحمي معتنقيه من الفوضى والضياع والتخبط، ويكفل لهم الراحة النفسية والفكرية.

١٨- الإسلام واضح ميسور، وسهل الفهم لكل أحد.

١٩- الإسلام دين مفتوح لا يغلق في وجه من يريد الدخول فيه.

٢٠- الإسلام يرتقي بالعقول، والعلوم، والنفوس، والأخلاق: فأهله المتمسكون به حق التمسك هم خير الناس، وأعقل الناس، وأزكى الناس.

٢١- الإسلام يدعو إلى حسن الأخلاق والأعمال: قال -تعالى-: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصّلَت: ٣٤].

٢٢- الإسلام يحفظ العقول: ولهذا حرم الخمر، والمخدرات، وكل ما يؤدي إلى فساد العقل.

٢٣- الإسلام يحفظ الأموال: ولهذا حث على الأمانة، وأثنى على أهلها، ووعدهم بطيب العيش، ودخول الجنة، وحرم السرقة، وتوعد فاعلها بالعقوبة، وشرع حد السرقة وهو قطع يد السارق؛ حتى لا يتجرأ أحد على سرقة الأموال؛ فإذا لم يرتدع خوفاً من عقاب الآخرة ارتدع خوفاً من قطع اليد.

ولهذا يعيش أهل البلاد التي تطبق حدود الشرع آمنون على أموالهم، بل إن قطع اليد قليل جداً؛ لقلة من يسرق.

ثم إن قطع يد السارق فيه حكمة الزجر للسارق من معاودة السرقة، وردع أمثاله عن الإقدام عليها، وهكذا تحفظ الأموال في الإسلام.

٢٤- الإسلام يحفظ الأنفس: ولهذا حرم قتل النفس بغير الحق، وعاقب قاتل

النفس بغير الحق بأن يقتل.

ولأجل ذلك يقل القتل في بلاد المسلمين التي تطبق شرع الله؛ فإذا علم الإنسان أنه إذا قتل شخصاً سيقتل به كف عن القتل، وارتاح الناس من شر المقاتلات.

٢٥- **الإسلام يحفظ الصحة**: فالإشارات إلى هذا المعنى كثيرة جدا سواء في القرآن أو السنة النبوية.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

قال العلماء: إن هذه الآية جمعت الطب كله؛ ذلك أن الاعتدال في الأكل والشرب من أعظم أسباب حفظ الصحة.

ومن الإشارات لحفظ الصحة أن الإسلام حرم الخمر، ولا يخفى ما في الخمر من أضرار صحية كثيرة، فهي تضعف القلب، وتغري الكلى، وتمزق الكبد إلى غير ذلك من أضرارها المتنوعة.

ومن ذلك أن الإسلام حرّم الفواحش من زنًا ولواط، ولا يخفى ما فيهما من الأضرار الكثيرة ومنها الأضرار الصحية التي عرفت أكثر ما عُرِفت في هذا العصر من زهري، وسيلان، وهربس، وإيدز ونحوها.

ومن حفظ الإسلام للصحة أنه حرّم لحم الخنزير، الذي عرف الآن أنه يولّد في الجسم أدواءً كثيرة، ومن أخصّها الدورة الوحيدة، والشعرة الحلزونية، وعملهما في الإنسان شديد، وكثيراً ما يكونان السبب في موته.

ومن الإشارات في هذا الصدد ما عرف من أسرار الوضوء، وأنه يمنع من أمراض الأسنان، والأنف، بل هو من أهم الموانع للسل الرئوي؛ إذ قال بعض الأطباء: إن أهم طريق لهذا المرض الفتاك هو الأنف، وإن أنوفاً تغسل خمس عشرة مرة لجديرة بأن لآ تبقى فيها جراثيم هذا الداء الوبيل، ولذا كان هذا المرض

في المسلمين قليلاً وفي الإفرنج كثيراً.

والسبب أن المسلمين يتوضؤون للصلاة خمس مرات في اليوم، وفي كل وضوء يغسل المسلم أنفه مرة أو مرتين أو ثلاثاً.

٢٦- **يتفق مع الحقائق العلمية**: ولهذا لا يمكن أن تتعارض الحقائق العلمية الصحيحة مع النصوص الشرعية الصحيحة الصريحة.

وإذا ظهر في الواقع ما ظاهره المعارضة فإما أن يكون الواقع مجرد دعوى لآ حقيقة لها، وإما أن يكون النص غير صريح في معارضته؛ لأن النص وحقائق العلم كلاهما قطعي، ولا يمكن تعارض القطعيّين.

ولقد قرر هذه القاعدة كثير من علماء المسلمين، بل لقد قررها كثير من الكتاب الغربيين المنصفين، ومنهم الكاتب الفرنسي المشهور (موريس بوكاي) في كتابه: (التوراة والإنجيل والقرآن) حيث بين في هذا الكتاب أن التوراة المحرفة، والإنجيل المحرف الموجودين اليوم يتعارضان مع الحقائق العلكية، في الوقت الذي سجل فيه هذا الكتاب شهادات تفوق للقرآن الكريم سبق بها القرآنً العلم الحديث.

وأثبت الكاتب من خلال ذلك أن القرآن لايتعارض أبدا مع الحقائق العلمية، بل إنه يتفق معها تمام الاتفاق.

ولقد تظافرت البراهين الحسية، والعلمية، والتجريبية على صدق ما جاء به الإسلام حتى في أشد المسائل بعدا عن المحسوس، وأعظمها إنكاراً في العصور السابقة.

خذ على سبيل قول النبي ﷺ: «**إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا أُولاهنّ بالتراب**».

ولقد جاء الطب باكتشافاته ومكبراته فأثبت أن في لعاب الكلب مكروباتٍ

وأمراضاً فتاكة لا يزيلها الماء وحده، وأظهرت البحوث العلمية الحديثة أنه يحصل من إنقاء التراب لهذه النجاسة ما لا يحصل بغيره.

وجاء -أيضاً- أن شرب الكلب في الإناء يسبب أمراضاً خطيرة، فالكلب كثيراً ما تكون فيه ديدان مختلفة الأنواع، ومنها دودة شريطية صغيرة جدّا، فإذا شرب في إناء، أو لمس إنسانٌ جسد الكلب بيده أو بلباسه انتقلت بويضات هذه الديدان إليه، ووصلت إلى معدته في أكله، أو شربه، فتثقب جدرانها، وتصل إلى أوعية الدم، وتصل إلى الأعضاء الرئيسة، فتصيب الكبد، وتصيب المخ، فينشأ عنه صداع شديد، وقيءٌ متوالٍ، وفقد للشعور، وتشنجات، وشلل في بعض الأعضاء، وتصيب القلب، فربما مزقته، فيموت الشخص في الحال.

ثم إن العلوم الطبيعية تؤيد الإسلام، وتؤكد صحته على غير علم من ذويها.

مثال ذلك تلقيح الأشجار الذي لم يكتشف إلا منذ عهد قريب، وقد نص عليه القرآن الذي أنزل على النبي الأمي منذ أربعة عشر قرناً في قوله-تعالى-: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[الحجر: ٢٢] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[ق: ٧] وقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذّاريَات: ٤٩] وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦].

فهذا كلام رب العالمين في القرآن قبل أن تبين لنا العلوم الطبيعية أن في كل نبات ذكراً وأنثى.

ولقد اعتنق بعض الأوربيين الإسلام لما وجد وصف القرآن للبحر وصفاً شافياً مع كون النبي ﷺ لم يركب البحر طول عمره، وذلك مثل قوله -تعالى-: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النُّور: ٤٠].

٢٧- الإسلام يكفل الحريات ويضبطها: فحرية التفكير في الإسلام مكفولة، وقد منح الله الإنسان الحواس من السمع، والبصر، والفؤاد، ليفكر، ويعقل، ويصل إلى الحق، وهو مأمور بالتفكير الجاد السليم، ومسؤول عن إهمال حواسه وتعطيلها، كما أنه مسؤول عن استخدامها فيما يضر.

والإنسان في الإسلام حر في بيعه، وشرائه، وتجارته، وتنقلاته، ونحو ذلك ما لم يتعد حدود الله في غش، أو خداع، أو إفساد.

والإنسان في الإسلام حر في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا من مأكول، أو مشروب، أو مشموم، أو ملبوس ما لم يرتكب محرماً يعود عليه، أو على غيره بالضرر.

ثم إن الإسلام يضبط الحريات؛ فلا يجعلها مطلقة سائمة في مراتع البغي والتعدي على حريات الآخرين؛ فالشهوة على سبيل المثال لو أطلقت لاندفع الإنسان وراء شهواته، التي تكون سبباً في هلاكه؛ لأن طاقته محدودة، فإذا استنفذت في اللهو والعبث والمجون - لم يبق فيها ما يدفعها إلى الطريق الجاد، ويدلها على مسالك الخير؛ فليس من الحرية - إذاً - أن يسترسل في شهواته وملذاته غير مبال بحلال أو حرام، وغير ناظر في العواقب.

إن نهايته ستكون وخيمة في العاجل قبل الآجل؛ إن ثرواته ستتبدد، وإن قواه ستنهار، و إن صحته ستزول، وبالتالي سيكون تعيساً محسوراً.

ثم هب أن الإنسان أطلق لشهواته العنان هل سيجد الراحة والطمأنينة؟

الجواب: لا؛ وإذا أردت الدليل على ذلك فانظر إلى عالمنا المعاصر بحضارته المادية، لما أطلق حرية العبث والمجون، ولم يحسن استخدامها - حدثت القلاقل، والمصائب، والأمراض الجسدية والنفسية، وشاع القتل، والنهب، والسلب، والانتحار، والقلق، وأمراض الشذوذ.

وليست الحرية -أيضًا- بالسير وراء الأطماع التي لا تقف عند حد، دونما مبالاة في آثارها على الآخرين؛ فهل يعد من الحرية ما يقوم به الأقوياء من سطو على الضعفاء، واستخفاف بحقوقهم، ومصادرة لآرائهم كما هي حال الدول الكبرى في عالمنا المعاصر؟

الجواب: لا؛ فالحرية الحقة -هي ما جاء به الإسلام، وهي الحرية المنضبطة التي تحكم تصرفات الإنسان، والتي يكون فيها الإنسان عبداً لربه وخالقه؛ فذلك سر الحرية الأعظم؛ فالإنسان إذا تعلق بربه خوفاً، وطمعاً، وحباً، ورجاءً، وذلاً، وخضوعاً- تحرر من جميع المخلوقين؛ ولم يعد يخاف أحداً غير ربه، ولا يرجو سواه، وذلك عين فلاحه وعزته.

وبالجملة فالإسلام دين الكمال والرفعة، ودين الهداية والسمو.

وإذا رأينا من بعض المنتمين إليه وهناً في العزم، أو بعداً عن الهدى - فالتبعة تعود على أولئك، لا على الدين؛ فالدين براء، والتبعة تقع على من جهل الإسلام، أو نبذ هدايته وراء ظهره.

من محاسن الدين الإسلامي

مر بك في الفقرة السابقة ذكر لبعض خصائص الدين الإسلامي، والحديث في هذه الفقرة قريب من الحديث السابق أو إكمالٌ له.

وسيتضح لك فيما يلي شيء من محاسن الدين الإسلامي، وأنه دين السعادة والفلاح، وأنه لم يدع الإنسان في خاصة نفسه أو مع أهله، أو مع جيرانه، أو أهل ملته، أو الناس أجمعين - إلا علمه من دقائق الآداب، ومحاسن المعاملات ما يصفو به عيشه، ويتم سروره.

ولا يريبنك ما عليه كثير من المسلمين من سوء الحال؛ فإن ذلك بمقتضى أهوائهم لا من طبيعة دينهم.

ومحاسن الدين الإسلامي تتجلى بوضوح من خلال النظر في أوامر الإسلام ونواهيه.

فإليك نبذة عن ذلك فيما يلي من أسطر.

أولًا: من أوامر الإسلام:

الإسلام يأمر بأوامر عظيمة تنتظم بها الأمور المدنية، وتصلح بها حالة المعاش؛ فالإسلام في ذلك الشأن هو البحر الذي لا يدرك غوره، والغاية التى ليس بعدها أمل لآمل، ولا زيادة لمستزيد.

وهذه الآوامر حث عليها الإسلام بأبلغ العبارات، وأقربها إلى الأفهام، وتوعد على الخروج عن هذه الجادة بالعقاب، ووعد من أخذ بها بجزيل الثواب.

فمن تلك الآوامر العظيمة التي جاء بها الإسلام ما يلي:

١- **الإسلام يأمر** بما تكون به كبير النفس عن التشبه بما دونك من أنواع الحيوانات، رفيع القدر عن أن تكون عبدا لشهواتك وحظوظك، عالي المنزلة عن أن تعظم غير ربك، أو تخضع لغير حكمه.

٢- **يأمرك** بما يشعرك أنك عضو نافع عامل تأنف أن تقلد غيرك، أو تكون عالة على سواك.

٣- **الإسلام أمرك** باستعمال عقلك، وجوارحك فيما خلقت له، من العمل النافع في أمر دينك ودنياك.

٤- **الإسلام يأمرك** بالتوحيد الخالص، والعقيدة الصحيحة التي لا يقبل العقل غيرها، ولا تطمئن القلوب إلا بها؛ فالعقيدة التي أمرك الإسلام بها تجعلك عظيماً

كبيراً، وتشعر قلبك العزة، وتذيقك حلاوة الإيمان.

٥- الإسلام يأمرك بستر عورات المسلمين، واتقاء مواضع التهم.

٦- الإسلام يأمر بالسعي لقضاء حاجات المسلمين، وتنفيس كرباتهم.

٧- الإسلام يأمرك بالبداء بالسلام على كل مسلم، وأن تنصر أخاك المسلم في غيبته.

٨- الإسلام أمرك بعيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة القبور والدعاء لإخوانك المسلمين.

٩- الإسلام يأمرك بإنصاف الناس من نفسك وأن تحبّ لهم ما تحبه لنفسك.

١٠- الإسلام أمرك بالسعي في طلب الرزق، وأن تعز نفسك، وأن ترفعها عن مواطن الذل والهوان.

١١- الإسلام أمرك بالرحمة بالخلق، والعطف عليهم، وحسن رعايتهم ومداراتهم، والسعي في نفعهم، وجلب الخيرات لهم، ودفع المضرات عنهم.

١٢- الإسلام أمرك ببرّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجار، والرفق بالحيوان.

١٣- الإسلام أمرك بالوفاء للأصحاب، وحسن المعاملة للزوج والأبناء.

١٤- الإسلام أمرك بالحياء، والحلم، والسخاء، والكرم، والشجاعة، والغيرة على الحق.

١٥- وأمرك بالمروءة، وحسن السمت، والحزم، و الحكمة في الأمور.

١٦- وأمرك بالأمانة، وإنجاز الوعد، وحسن الظن، والأناة في الأمور، والمبادرة في فعل الخير.

١٧- وأمرك بالعفة، والاستقامة، والشهامة، والنزاهة.

١٨- الإسلام يأمرك بشكر الله، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والأنس به، والتوكل عليه.

إلى غير ذلك من المعاني الجميلة العظيمة.

ثانيًا: من نواهي الإسلام:

فمن أعظم محاسن الإسلام ما جاء به من النواهي التي تحذر المسلم من الوقوع في الشر، وتنذره سوء العاقبة التي تترتب على الأفعال القبيحة؛ فمما نهى الإسلام عنه ما يلي:

١- نهى عن الكفر، والفسوق، والعصيان، واتباع الهوى.

٢- ونهى عن الكبر، والحقد، والعجب، والحسد، والشماتة بالمبتلين.

٣- ونهى عن سوء الظن، والتشاؤم، واليأس، والبخل، والتقتير، والإسراف والتبذير.

٤- ونهى عن الكسل، والخور، والجبن، والضعف، والبطالة، والعجلة، والفظاظة، وقلة الحياء، والجزع، والعجز، والغضب، والطيش، والتسخط على ما فات.

٥- ونهى عن العناد، وعن قسوة القلب التي تمنع صاحبها من إغاثة الملهوف والمضطر.

٦- ونهى عن الغيبة وهي ذكرك أخاك بما يكره، وعن النميمة وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد.

٧- ونهى عن كثرة الكلام بلا فائدة، وعن إفشاء السر، والسخرية بالناس، والاستهزاء بالآخرين.

٨- ونهى عن السب، واللعن، والشتم، والتعبير بالعبارات المستقبحة، والتخاطب بالألقاب السيئة.

٩- ونهى عن كثرة الجدال، والخصومة، وعن المزاح البذيْ الذي يجر إلى الشر والتطاول.

١٠- ونهى عن الكلام والتدخل فيما لا يعني.

١١- ونهى عن كتمان الشهادة، وعن شهادة الزور، وعن قذف المحصنات، وسب الأموات، وكتم العلم.

١٢- ونهى عن السفاهة، والفحش، وعن المن بالصدقة، وعن ترك الشكر لمن أسدى إليك معروفاً.

١٣- ونهى عن الاستطالة في الأعراض، وانتساب المرء إلى غير أبيه، وعن ترك النصيحة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٤- ونهى عن الخيانة، والمكر، وإخلاف الوعد، والفتنة التي توقع الناس في اضطراب.

١٥- ونهى عن عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وإهمال الأولاد.

١٦- ونهى عن التجسس، والتحسس، وتتبع عورات الناس.

١٧- ونهى عن تشبه الرجال بالنساء، وعن تشبه النساء بالرجال، وعن إفشاء سر الزوج.

١٨- ونهى عن شرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وعن المقامرة التي تعرض المال للمخاطرة.

١٩- ونهى عن ترويج السلعة بالحلف الكاذب، وعن بخس الكيل والوزن، وعن إنفاق المال بالمحرمات، وعن إيذاء الجار.

٢٠- ونهى عن السرقة، والغصب، وخطبة الإنسان على خطبة أخيه، وشرائه على شراء أخيه.

٢١- ونهى عن خيانة أحد الشريكين لشريكه، وعن استعمال العارية بغير ما أذن بها صاحبها، وعن تأخير أجرة الأجير أو منعه منها بعد فراغه من عمله.

٢٢- ونهى عن الإكثار من الطعام بحيث يضر صاحبه.

٢٣- ونهى عن التهاجر، والتشاحن، والتدابر، وحذّر أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام.

٢٤- ونهى عن الضرب لأحد بغير مسوغ شرعي، وعن ترويع الناس بالسلاح.

٢٥- ونهى عن الزنا، واللواط، وقتل النفوس التي حرم الله قتلها.

٢٦- ونهى عن قبول القاضي هديةً من أحد لم يكن له عادة بإهداءها له قبل توليه، وعن قبول الضيافة الخاصة.

٢٧- ونهى عن أخذ الرشوة من محق أو مبطل، وعن دفع الرشوة من محق أو مبطل، إلا من محق مضطر إلى دفعها.

٢٨- ونهى عن خذلان المظلوم مع القدرة على نصره.

٢٩- ونهى عن اطلاع المرء على دار غيره بغير إذنه ولو من ثقب، و عن التسمع لحديث قوم يكرهون سماعه.

٣٠- ونهى عن كل ما يضر بالهيئة الاجتماعية، أو النفس، أو العقل، أو الشرف، أو العرض.

هذه نبذة موجزة عن أوامر الإسلام ونواهيه، وبسط ذلك، وذكر أدلته يحتاج إلى مجلدات ضخام.

إلى الباحثين عن السعادة

إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا و باطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياةً أكملهم استجابةً لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزءٌ منه فاته جزءٌ من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحي القلوب الحياة الطيبة، وكمال الحياة في الجنة، والرسول ﷺ داعٍ إلى الإيمان، وإلى الجنة، فهو داعٍ إلى الحياة في الدنيا والآخرة، والإنسان مضطرٌ إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويُؤْثر ما ينفعه على ما يضره، ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك؛ ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل، دون حياة من هو معافى من ذلك، وحياة قلبه وروحه بما يميز بين الحق والباطل والغي والرشاد.

وكما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله ﷺ من روحه فيصير حيًا بذلك النفخ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه، وهو وحي الله، فإن وحيه روحٌ ونور، فالحياة والاستنارة موقوفةٌ على نفخ الرسول الملكي فمن أصابه نفخ الرسول الملكي، ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له أحد الحياتين وفاتته الأخرى.

وأما من أعرض عن أمر الله وخالف ما أنزله على خاتم رسله، وأخذ من غير

الدين الذي ارتضاه الله لخلقه، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيقٌ حرجٌ لضلاله، وإن ظهرت عليه نعمٌ في ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلقٍ وحيرةٍ وشكٍ فلا يزال في ريبه يتردد، فهذا من ضنك المعيشة، فالمعرض عن الله وعن شريعة نبيه الخاتم، يصيبه من الضنك بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأنواع النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبودٍ سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا.

الخاتمة

فهذا نبينا ﷺ وهذا إسلامنا فيا طالب الخير والنجاة أقبل، ويا مريد الشر والفتنة أقصر فلن يهدأ بال أهل الإسلام حتى يكون الدين كله لله.

وأنت يا من تزعم حب النبي انظر لنفسك، ما دليل حبك وما برهان صدقكك، وماذا قدمت لنصرة دين الله.

فشمر أيها المحب فالطريق طويل والأجل قصير والموعد الجنة بإذن الله.

وأنت يا من جهلت قدر المصطفى ولم تعرف له قدره وعظيم منزلته وأثره على العالم حتى قيام الساعة، أقرأ وتعرف ثم اعلنها للعالم ولا تخف؛ إنه الدين الحق وإنه النبي الخاتم، فلا نجاة ولا فلاح إلا بمحبة النبي محمد ﷺ، ولا نجاة ولا فلاح إلا بالاقتداء به والامتثال لأمره ونصرة دينه.

فهرس المصادر والمراجع

- إظهار الحق - الكيرواني الهندي
- تعريف غير المسلمين بالإسلام - محمد بن إبراهيم الحمد
- جلاء الأفهام في الصلاة والسلام عليى خير الأنام - ابن قيم الجوزية.
- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن قيم الجوزية.
- هداية الحيارى - ابن قيم الجوزية.
- الجواب الصحيح - ابن تيمية.
- الرسل والرسالات - عمر الأشقر.
- السيرة النبوية - لابن هشام.
- الشمائل المحمدية - الترمذي.
- جمع الوسائل في شرح الشمائل- علي القاري.
- السيرة النبوية الصحيحة - الدكتور أكرم ضياء العمري.
- الرحيق المختوم - الشيخ صفي الرحمن المباركفوري.
- الرسول ﷺ كأنك تراه - القرني.
- هذا الحبيب - الشيخ أبو بكر الجزائري.
- محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن - إبراهيم خليل فيلبس.
- ١٠٠٠ سؤال وجواب في المذاهب والأديان والفرق المعاصرة - إسلام محمود.

- ١٠٠٠ سؤال وجواب في السيرة النبوية - إسلام محمود.
- القاموس الفريد في العقيدة والتوحيد - إسلام محمود.
- معجزات النبي ﷺ - مصطفى العدوي
- موسوعة الكتب التسعة - شركة حرف.
- مكتبة الألباني - برنامج ألكتروني.

رسول الإسلام محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٩
نور الرسالة المحمدية يشرق على الأرض ١٤
البشارة بنبوة محمد ﷺ في الكتب السابقة ١٧
مولده ﷺ ونشأته ٢٩
اسمه ونسبه ﷺ ٢٩
بداية مبعثه ﷺ ٣٠
أسمائه ﷺ ٣١
شرح معاني أسمائه ﷺ ٣٤
رسول الهداية ٣٧
دعوته ﷺ قومه ٤٢
الهجرة إلى الحبشة ٤٣
جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه والنجاشي ٤٣
الحصار في الشعب ٤٤
الخروج إلى الطائف ٤٥
الإسراء والمعراج ٤٥
دعوته ﷺ للقبائل ٤٥
استجابة أهل المدينة لدعوة النبي ﷺ ٤٦
الهجرة إلى المدينة ٤٦
النبي ﷺ في الغار ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ٤٧
غزواته ﷺ ٤٨

الحرب ضد الإسلام قديمًا وحديثًا ٤٩
صور من الأذى الذي لحق أصحاب النبي ﷺ ٥٥
صور من الأذى الذي لحق بالنبي ﷺ ٥٩
وصف خلقته ﷺ ٦٣
ملابسه ﷺ ٦٥
طعامه وشرابه ٦٦
هديه ﷺ في نومه ٦٦
هديه ﷺ في الركوب ٦٧
هديه ﷺ بيعه وشرائه ٦٧
هديه ﷺ في خُطبه ٦٨
هديه ﷺ في الوضوء ٦٨
هديه ﷺ في صلاته ٦٨
هديه ﷺ في الصدقة الزكاة ٧١
هديه ﷺ في الصيام ٧٢
هديه ﷺ في حجه وعمرته ٧٥
البيت النبوي ٨١
تعدد زوجات النبي ﷺ ٨٩
المعجزات المحمدية ٩٣
القرآن الكريم ٩٣
انشقاق القمر ٩٤
نزول المطر بدعائه ﷺ ٩٥
نبوع الماء من بين أصابعه أسمائه ﷺ ٩٥

قدح لبن روى فئامًا من الناس ٩٧
الطعام القليل يشبع العدد الكثير ٩٨
تكثير الطعام ٩٩
توفية دين جابر الذي استغرق كلّ مالِه ١٠٠
انقياد الشجر له ﷺ ١٠٠
حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ ١٠١
سلام الحجر عليه ﷺ ١٠٢
سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه ١٠٢
شهادة الذئب برسالته ﷺ ١٠٣
شفاء علي رضي الله عنه بتفاله ﷺ ١٠٣
صدق إخباره بالغيب ﷺ ١٠٤
الأخلاق المحمديّة التي فيها أسوة للمؤمنين ١٠٦
الآداب المحمدية ١٠٧
الأخلاق المحمديّة ١٠٨
الكرم المحمّدِي ١٠٩
الحلم المحمدي ١١٠
العفوُ المحمّدي ١١١
الشجاعة المحمدية ١١٢
الصبْر المحمّدي ١١٣
العدْل المحمّديّ ١١٥
الزهد المحمدي ١١٦
الحياء المحمدي ١١٨

حُسن عشرته ﷺ ١١٩
خشية الحبيب ﷺ ١٢١
التواضع المحمدي ١٢٣
المزاح المحمدي ١٢٥
الفصاحة المحمدية ١٢٧
الرحمة المحمدية ١٢٩
الوفاء المحمدي ١٣٠
حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم ١٣١
أصول دينه ودعوته ﷺ ١٤٩
من خصائص دين الإسلام ١٥٤
من محاسن الدين الإسلامي ١٦٢
إلى الباحثين عن السعادة ١٦٨
الخاتمة ١٧٠
فهرس المصادر والمراجع ١٧١
فهرس الموضوعات ١٧٣

هذا الكتاب منشور في